روايات مصرية للجيب



ما وراء الطبيعة

أسطورة النداهة

مقدمـــة ..

الاسم : د . رفعت إسماعيل .

السن : ستة وستون عامًا .

المهنة : أستاذ أمراض الدم (سابقًا) بعدد لابأس به من الجامعات فى مصر وأوروبا وأمريكا .

الحالة الاجتماعية : أعزب .

لقد عشت حياة حافلة أنقب فيها فى كل مكان عن أساطير الحياة التى ورثناها عن أجدادنا وأثارت رعبنا كما أثارت رعبهـم ... واجـهت الكـونت (دراكـولا) و (الزومبى) ودخلت قلعة د . (فرانكنشتاين) وتعرضت للعنة الفراعنة ولعبت بأوراق التاروت وغير ذلك الكثير ..

* وقبل أن يحين الأجل أو يقضى تصلب شرايين المخ على ذاكرتى آثرت أن أكتب حكاياتى كى يعرف الشباب أى محارب للخرافات والخزعبلات كنته فى حياتى ..

واليوم سأحكى لكم حكايتى المريرة مع رعب القرى المصرية العتيد .. (النداهة) .. ولن أكرر نفسى ..

لا تقرءوا هذه الصفحات إلا نهارًا وبين أحبائكم ..

إن الليل والوحدة يثيران الخيال .. وأنا أعرف هذا جيدًا لأنى عانيت منهما كما لم يعان أحدكم ... ولهذا – ولهذا فقط – أوصيكم ألا تقرءوا هذه الأوراق وحدكم ليلًا .. انتظروا شمس النهار .. ودفء الصحبة الآدمية .

لقد نصحت .. وقد أعذر من أنذر !! ..

* * *

١ – العــودة ..

قريتى أخيرًا ! ..

قريتى العجوز الطيبة حيث كانت طفولتى ومراهقتى قبل أن أنتقل إلى القاهرة كى أدرس الطب وأقيم هناك ..

لم يتبدل شىء ..

البيوت الطينية .. الساقية .. المسجد الذى تآكلت جدرانه .. الترعة الراكدة .. النخلة المائلة فوق حائط الكتاب .. الأطفال الحفاة يلعبون ألعابهم البدائية وقد تدلى المخاط من أنوفهم ..

وكنت أنا فى سيارة أجرة .. واحدة من تلك السيارات العتيقة التى لاتصلح إلا للسقوط براكبيها من الفلاحين التعساء فى الترعة ، لم تكن سيارتى لتتحمل هذا الطريق الوعر ؛ لذا تركتها فى القاهرة ..

ثمة فلاح عجوز متشكك يجلس جوارى وترتعش شفتاه بآيات قرآنية طيلة الوقت ، وكل ثلاث دقائق يهتف فى السائق :

– بالراحة يا (صالح) ! .. هى الدنيا طارت ؟! ..

فيضحك السائق فى فظاظة ، ويرفع عقيرته بالغناء بصوت أجش (لم تكن أجهزة كاسيت السيارات منتشرة فى ذلك الوقت لحسن الحظ) ، وتزداد سرعة العربة أكثر ! ..

وعلى جانبي الطريق يتوقف الفلاحون عن العمل في حقولهم ليروا ما هنالك وقد ضيقوا عيونهم - من أثر الغبار والعرق - مؤكدين حقهم الإلهي في التدخل فيما لا يعنيهم .. إلى أن يقول أحدهم في ذكاء واضح :

- هذا (صالح) !

- لقد عاد إذن !

ويواصلون عملهم .. ويواصل العجوز قراءة القرآن ..

* * *

قريتي أخيرًا !..

هي إحدى قرى محافظة الشرقية على مسافة قصيرة من (فاقوس) واسمها (كفر بدر) .. هل تعرف هذا الاسم؟!.. لا أظن .. هل ستتذكره؟!.. لا أظن ..

إنه اسم آخر من تلك الأسماء المتشابهة التي يزخر بها ريفنا الطيب والتي لا يعرفها ولا يهتم بها سوى أبناء قراها ..

من هذه القرية الصغيرة صرت أحد أساتذة أمراض الدم المرموقين وعضوًا مرغوبًا فيه في كل منتدى علمي في العالم .. وصديقًا لكل علماء الدم في الأرض ..

ليس هذا غرورًا ولكنه إعتراف بفضل هذه القرية الفقيرة عليّ ..

واليوم أعود إليها بعد انقطاع ، شاعرًا بحاجة النبات إلى جذوره ..

نظرات الأطفال الفضولية تلاحقني ، والحسناوات المراهقات يختلسن إليّ النظر ثم يلكز بعضهن البعض في دلال مرح ..

لا أحد يتذكرني تقريبًا .. لا أحد ..

* * *

ووصلت إلى دارنا .. الدار الحنون التي عشت فيها أجمل أيامي ، وهي - كأغلب بيوت القرية - مصنوعة من الطين اللبن ، مصطبة عند مدخلها فوقها مصباح جاز مشروخ .. ثم الباب الخشبي العملاق .. والفسحة التي يمرح فيها البط والدجاج يتسلى بالتقاط الحشرات من الأرض الطينية الزلقة ، وحجرة على يمين الداخل .. والفرن العتيق .. ثم درجات طينية منحوتة كيفما اتفق تصعد إلى الطابق العلوي حيث السطح بما عليه من أكوام تبن وأقراص من روث الماشية معدة لتجف .. وجوارها حجرتي .. وبالطبع لم تكن الكهرباء قد وصلت قريتي في ذلك الوقت ..

على الباب تنحنحت .. ثم دخلت وألقيت نظرة على العنز الصغيرة التي أخذت ترمقني في دهشة .. ، سيدة عجوز

جالسة وأمامها طشت نحاسى كبير ملىء بالأرز وقد شرعت تنقيه .. وجوارها شابة حسناء منهكة فى تنظيف طفل صغير عار تماما ..

رفعت العجوز عينيها الذابلتين لأعلى فرأتنى ..

- ابنى ... (رفعت) ..!

- أمى ..!

وارتميت فى أحضانها وقبلت يديها فى نهم .. اليدين المعروقتين العزيزتين .. فى حين شرعت الشابة تعانقنى من الخلف دامعة ويداها مبتلتان بعد ..

- أخى ..!

يا للحنان .. ويا للرقة ! ابدا لم أتلق فى حياتى قبلات بلا ثمن وصادقة إلى هذا الحد من أية امرأة إلا من أمى وأختى ، وأبدا لم يبك إنسان بصدق حين يرانى إلا هاتين العزيزتين ، لكننى لم أفطن أبدا قبل تلك اللحظة إلى ما هما فيه من فقر وبؤس حال ... دائما كانت هذه المعالم التى تحيطهما حقيقة مسلمة فى عينى إلا أن فترة غيابى عنهما جعلتنى أفطن إلى أن من واجبى أن أوليهما عناية مادية أكثر ..

إننى - الآن - قادر على أن أبنى لهما بيتا من الطوب .. وأن أوفر لهما الكثير من سبل الراحة التى هما جديرتان بها ..

لكن شيئا فى عينى أمى جعلنى أؤجل التفكير في ذلك .. إن حساسيتها الزائدة لن تعتبر اقتراحى برا بأهلى بل سترى فيه لونا ما من التعالى على بيئتى ، إن فكرة إقامتى وحيدا بالقاهرة وسفرى للخارج مرارا لاتفارقها .. وهى تؤمن إيمانا مطلقا لايتزحزح أننى - لابد - قد تغيرت ، وهى تنتظر أول تلميح منى كى يتحطم قلبها ..

نعم .. لترجئ هذا الحديث الآن ..

* * *

كانت عودتى - للأسف - وبالا على الطيور بالدار ... مذبحة دامية قامت بها أختى .. وتم إعداد مأدبة هائلة لى فى حين أخذت أمى تدير (العملية) كجنرال فى حرب يعرف تماما كيف يكسبها ... رحمها الله كم كانت باسلة نشيطة ..

وجالسا كهارون الرشيد على الطبلية بين أكوام الرقاق واللحم واللبن الرائب والخبز والفطير ، أدركت أن علىّ أن ألتهم كل هذا عن آخره وإلا تحطم قلبا هاتين العزيزتين !

وأمى - ككل أم مصرية - تؤمن أن صحة ابنها ليست على ما يرام فى أية لحظة تراه فيها ، وتؤمن أن الأكل هو العلامة الوحيدة الموثوق بها على الصحة ، ثم هى - طبعا - ترى أننى تأخرت في الزواج إلى حد مرعب ..

- كم أتمنى أن أطمئن عليك مع زوجتك ، هى التى ستعرف كيف ترعى صحتك وطعامك ..!

آه يا للنغمة الأليمة !..

كنت أنا وقتها قد بدأت أشعر بالوحدة وبتلك الغريزة التى يستشعرها الواحد منا فيرغب أن يكون اثنين ثم ثلاثة ثم أربعة وهكذا ... ، لم يكن قلبى يختلف عن قلب البواب والسباك وبائع الجرائد .. تلك الحاجة الملحة إلى رفيقة درب تنتظرك عند عودتك ليلاً وتودعك عند ذهابك صباحاً ..

رحمك الله يا أمى !.. كيف لو عرفت - وكيف لو عرفت أنا - أننى سأصل إلى سن السادسة والستين وحيداً ، ولم يكن فى توقعى أننى سأرى كل هذا الذى سأراه وأننى سأقضى زهرة عمرى بين مصاصى الدماء والمسوخ حتى لا يبقى لدى وقت ولا متسع من عاطفة يسمحان لى بأن أجد فتاة لطيفة تشاركنى حياتى..

ابتلعت قطعة اللحم التى كنت ألوكها .. وغمغمت :

- ربنا يسهل !

ونظرت لوجهها الودود الطيب كيف لو عرفت ما مررت به فى انجلترا وفى رومانيا ؟!.. لو عرفت لماتت هلعاً .. ولأقسمت أن أظل فى كنفها آمناً حتى يموت واحد منا ..

مددت يدى أداعب ذقن الطفل العارى الذى أنا خاله .. وسألت :

- كيف حال (طلعت) زوجك يا (رئيفة) ؟

- بخير .. سيعود ليلاً ..

غمست لقمتى فى القشدة وطوحتها للفم .. وواصلت الاطمئنان :

- وما أخبار (رضا) ؟!

و (رضا) - إن كنت لا تعلم - هو أخى ، وهو فلاح آثر أن يرعى أرضنا فى القرية ويقيم مع زوجته فى الناحية الأخرى من البلدة لأن زوجته العصبية المتعالية لم ترد أن تعيش مع أمى وأختى ... ، مرت دقائق فطنت بعدها إلى أن واحدة منهما لم تجب عن سؤالى ..

- أقول .. ما أخبار (رضا) ؟

نظرة ساهمة فى عينى أمى .. ودمعة متجمدة فى عينى أختى وهى تحاول تجاهل السؤال بالتشاغل بإطعام طفلها .. ماذا حدث ؟!

- أمى .. ماذا حدث ..؟

وجدت أمى ألا مفر من الإجابة عن سؤالى فنظرت لعينى وهمست :

- رعاه الله وحفظه ..

- ماذا ؟.. هل .. هل هو مريض ؟.. هل تورط فى مشاكل ما ؟.. أن (نجاة) زوجته ..

- لاتتهم أحدا يا بنى .. إنها إرادة الله ..

- إذن ماذا حدث ..؟

أنهضت أختى ابنها من على حجرها .. وهمست :

- (رضا) .. نادته النداهة ..

***

٢ - أسطورة جديدة ..

النداهة ؟!.. ياللذكريات التى تثيرها هذه الكلمة عندى ..!.. حكايات جدتى لنا جوار الفرن ونحن بعد صبية صغار نصغى لقصصها بعيون مفتوحة وأفواه فاغرة ..، قصة تلك الشابة الحسناء التى تسير في الحقول ليلًا تنادى الشباب - الذكور طبعًا - كى يلحقوا بها .. ويهرع الشاب إلى أحضانها ، وهنا تتحول إلى حقيقتها .. غول مرعب شرس يفترس الفتى فلا يسمع عنه أحد بعدها ..

لكم أرقتنا هذه القصة ..!، ولكم تخيلنا تفاصيلها الشنيعة فى مئات الصور المرعبة ، ومازلت - بعد كل هذه السنين - أذكر صوت جدتى الخشن الخفيض يرتد فى حزن ذلك الموّال :

فين الولد يا مه؟   قالت نسى أهله
فات البلد لما   الغولة نادت له

* * *

فين الولد يا ولاد؟   قالوا الولد مسحور
سافر وراها بلاد   وآدى السنين بتدور

يالها من قصة !.. واليوم تُبعث هنالك من قصوص مخى الخلفية .. والغريب أنها تعود إلىّ فى هذا الوقت .. ومع أخى بالذات !..

- هل .. هل تعنين النداهة ؟
- نعم !..
- النداهة .. المرأة التى تنادى الشباب و ...؟
- نعم .. زين الشباب ..

ألقيت باللقمة التى فى يدى على الطبلية ، ونهضت فى حنق :

- ماذا تعنين بهذا الكلام الفارغ ؟!

قالت أمى بعين دامعة :

- أقسم على هذا .
- ولكن لا يوجد شىء كهذا ..
- يوجد يا بنى .. يوجد .. هل نسيت [illegible] جدتك أم أن الإقامة فى مصر قد جعلتك تنسى كل شىء ؟!

آه .. يا لهذه النغمة التى كنت أخشاها ..!، مرة أخرى تذكرنى أمى أننى تغيرت حتما ، وأننى أعتقد أننى أكبر وأفضل من كل معتقدات أهلى .. وهذا - بالطبع - ليس صحيحا .. لا يجب أن أظل مؤمنا بالغولة والنداهة والحطمة لكى أثبت لهم أننى لم أتغير ..

- حسن .. كيف نادته ؟
- نادته .. وهذا كل شىء ..
- وهو .. هل هو موجود أم ماذا ؟!.. هل اختفى ؟!.

- إنه فى بيته .. لكنه تغير .. لم يعد يكلم أحدا ، ولا يأكل ولا يشرب ..
- لكن هذا لا يدل على شىء ..
- إنه ينتظر نداءها الثانى ليلحق بها للأبد ..

يا للجنون !.. الهراء الذى يطاردنى فى انجلترا ورومانيا وحتى هنا فى قريتى حيث ظننت أنى سأنال بعض الراحة النفسية ... يجب أن أحقق فى الموضوع بهدوء ودون انفعال ، يجب ألا أسمح لنفسى أن أصرخ فى هاتين البائستين ..

- حسن ..

قلتها فى استسلام .. وأردفت :

- أريد أن أراه فهل هذا مسموح به على الأقل؟

* * *

ذهبت لدار أخى المصنوعة من الطوب الأحمر وعلى بابها كفوف مفتوحة حمراء لمنع الحسد مع بعض العبارات التى تحاول طرد الحاسدين .. وقرعت الباب فى حزم ..

انفتح الباب عن زوجة أخى بوجهها الصارم المتعالى ، وما إن رأتنى حتى رسمت ابتسامة قاسية على شفتيها .. ورحبت بى فى فتور :

ـ أهلًا يادكتور .. الحمد لله على السلامة ..

وقادتني للداخل .. وكان هناك ثلاثة أطفال يلعبون في صحن الدار توقفوا عن اللعب ، وأخذوا يرمقونني بعيون فضولية واسعة ..

ـ هيا ياأولاد .. سلموا على عمكم ..

امتد كفان صغيران يصافحانني في حين توارى الثالث في خجل مذعور برغم لوم والدته له ، تمتمت ببعض كلمات الإطراء على نمو الأطفال وظرفهم .. ثم سرت خلفها إلى غرفة النوم ..

هناك ـ على الفراش ـ كان جالسًا .. (رضا) أخي وقد انثنى على نفسه منطويًا ... وكان الليل قد بدأ يحلّ مما جعل الرؤية عسيرة نوعًا ..

ـ (رضا) .. لقد جاء أخوك الدكتور (رفعت) .. هيا رحّب به ..

لم يردّ ..

ـ (رضا) .. لقد جاء من مصر خصيصًا من أجلك ..

استمر الصمت ... جلست جواره في هدوء وتأملته .. كان يرتدي جلبابًا أزرق متسخًا .. ورأسه عار .. وفي عينيه نظرة تائهة ترمق أبعادًا أخرى لانعرفها ..

لم يتغير كثيرًا ومازلت أرى ملامحي في ملامحه .. لكن ما دهاه ؟



جلست جواره في هدوء وتأملته .. كان يرتدي جلبابًا أزرق متسخًا .. ورأسه عار .. وفي عينيه نظرة تائهة ترمق أبعادًا أخرى لا نعرفها ..

- (رضا) .. ألا تعرفنى ؟

لم يبد عليه أنه سمعنى فضلًا عن أنه عرفنى أساسًا ...، ربّت على كتفه والتفت إلى زوجته حيث وقفت ويداها فى وسطها ..

- منذ متى ؟

- منذ أسبوع ..

- وماذا حدث ..؟!.

قالت وهى تشعل لمبة الجاز لتبدد بعض ظلام الحجرة مضيفة - فى الواقع - ظلالًا كئيبة زادت الجوّ توترًا :

- كنا قد نمنا .. ثم سمعت صوتًا ينادى (رضا) .. (رضا)!.. صوت امرأة قادمًا من الحقل القبلى ، نهض هو مصرًا على أن يرى ما يحدث .. قلت له إنها النداهة يا (رضا) .. لاتذهب يا (رضا) ، لكنه أصرّ على أن يذهب .. وها هى ذى النتيجة ..

- وهل عاد لك بعدها ؟

- كلا .. تأخر كثيرًا .. فخرجت للحقل وحدى حاملة لمبة الجاز ، وهناك وجدته واقفًا وحيدًا لايرد .. عدت به إلى البيت ومنذ تلك الساعة وهو في هذه الحال ..

- وهل هو لايأكل فعلًا ؟

- تقريبًا ..، أحيانًا أدسّ الطعام فى فمه كالأطفال أو كالبط ! ويظل الطعام فى فمه دون مضغ عدة ساعات ..

- وقضاء الحاجة ..؟

- حيث هو ..!

وفجأة - ودون إنذار - انفجرت باكية والدموع تختلط بكلماتها :

- لقد ضاع رجلى !.. لقد انتهى ..!.. ياليته ما خرج .. ياليته ما سمعها ..!.. ماذا أفعل ؟.. ماذا أفعل ؟

ثم شرعت فى هستيريا تسبّه على حماقته وتسبّ الظروف التى جعلته - هو بالذات - ضحية النداهة ، ثم تسبّ النداهة ... ثم تسبنى أنا نفسى لأننى ... لا أدرى بالضبط ما ذنبى فى الموضوع لكنها رأت أن لى دورًا ما ، لا تعرف كنهه ويستحق التوبيخ .. ربما لأنها كانت تفضل أن أكون أنا فى مكانه .. إن تمتعى بكامل قواى العقلية هو فى رأيها جريمة لاتُغتفر ..! ولا ألومها على هذا ..

ثم تهالكت فأجلستها جوار (رضا) وربتُّ على ذراعها ..، ما أغرب هذه المرأة !.. كل هذه العواطف كانت مختفية وراء مظهرها الصارم المتعالى ..

- ماذا أفعل بكوم اللحم الذى تركه لى ؟!

الواقع أنها كانت بالفعل فى موقف لاتحسد عليه لأن

أخى كان رجل البيت بمعنى الكلمة .. يفعل كل شيء ويعرف كل شيء ، ومن دونه هى ضائعة تمامًا ..

- إنه لم يمت يا نجاة .. لم يمت ..

- بل هو ميت فعلًا ..

- إنه مريض .. وسيشفى ..

- كلا .. أنا أعرف مصير من ناالتهم النداهة ... سيظل هكذا أسبوعين أو ثلاثة .. وبعد هذا تناديه للمرة الثانية ، عندئذ يفارق الدار للأبد ولن يراه أحد بعدها ..

- كلا .. لن يحدث هذا وأنا حىّ ... لن يمس أخى بشر أبدًا ..

ونهضت فى تصميم .. وقد تذكرتها هى الأخرى ... فأكملت :

- ولن يمس زوجة أخى سوء طالما أنا على وجه الأرض ..

☆ ☆ ☆

كان الظلام قد أرخى سدوله على القرية .. والنجوم شديدة الوضوح فى السماء كأنها ثقوب فى ثوب أسود يغطى الكون . كل الموجودات قد بردت واصطبغت بلون أزرق قاس ... ووجوه مكسوة بالظلام تمر من جوارى كأنها أشباح تمر بعبارات مختلطة وذهنى شارد ..

ما هى هذه الأعراض ؟!

إن هذه الصورة تشابه إلى حد ما أعراض الاكتئاب التفاعلى الحاد أو صدمة عاطفية أو مرضًا نفسيًا ما . لا أعرفه لأنى لا أعرف سوى أقل القليل عن هذه الاضطرابات ..

وفى تلك الأيام البعيدة لم تكن المخدرات معروفة بصورتها البشعة التى تعرفها اليوم ... لهذا استبعدتها على الفور وإن كنت لا أنكر تشابه هذه الأعراض مع تسمم الباربيتيورات المزمن .. لكن أخى لم يكن من النوع الذى يدمن .. ولم يكن سهل الخداع أبدًا ..

هل هو مرض عضوى ما لا أعرفه ؟.. هل هو جنون ذهولى متقدم ؟ .. هل هو ؟.. هل هو ؟.. لا إجابة ..

هناك شيء واحد أعرفه .. إن واجبى هو أن أجلب بعض زملائى من أساتذة الجامعة لبروه ... وأنا واثق أنهم سيجدون مصطلحًا لاتينيًا من عشرة أحرف على الأقل يسمون به هذا المرض .. وسيصفون بعض الأقراص والحقن تعيد أخى إلى حالته الأولى ..

نعم .. كنت أعرف ما ينبغى علىّ عمله ..

☆ ☆ ☆

٣ - ثـرثـرة ..

وقفت (نجاة) مذهولة ترقب ما يحدث ، في حين وقف أطفالها في استمتاع واضح يراقبون هذا السيرك الذي يدور أمامهم ..

وعلى الفراش الخشبي تمدد أخي (رضا) ذاهلاً لايدري شيئاً مما يحدث له ، في حين انكب زملائي - علماء الطب - يفحصون كل ملليمتر من جسده القوي ..

دكتور (عادل شلبي) أستاذ الأمراض الباطنية قاس حرارته وضغط دمه ووضع سماعة على صدره وبطنه ثم هز رأسه وجمع حاجياته ونهض ..

الدكتور (محمود الأسيوطي) أستاذ الأمراض العصبية وخزه بدبوس عدة مرات وضربه بمطرقته مرارا وتحسس عضلات فكه ثم ترك المجال للدكتور (محمد إبراهيم) أستاذ الأمراض النفسية الذي أخذ يرمقه في شك ، وأخذ يسأل (نجاة) أسئلة محمومة لاينتظر إجابتها عن أخي .. وهل كان يميل للوحدة .. وعلاقة أمي بأبي .. و ... و ...

ثم جاء دوري فمددت يدي بمحقن عملاق وسحبت من ذراعه عشرة سنتيمترات من الدم وضعتها في أنبوب اختبار به مادة مانعة للتجلط وأصدرت للمعيدي الدكتور

(علاء) قائمة طويلة من الفحوص يقوم بها حين يعود لعمله في القاهرة ..

ثم إنني خرجت معهم إلى صحن الدار وأجلستهم كيفما اتفق حول أكواب الشاي الأسود التي أعدتها زوجة أخي ..

وقلت في حرج :

- إنني أشكركم على مشقة السفر وكل الوقت الذي أضعتموه من أجلي ..

قال د . (محمود) وهو يرشف الشاي :

- لامجاملات بيننا أيها الزميل .. لامجاملات ..

وقال د . (عادل) :

- إن هذا هو واجب المهنة .. سكر من فضلك !

ناولته علبة السكر والملعقة ، ثم تنحنحت وقلت :

- والآن .. هل كونتم رأيا ما ؟

ساد الصمت برهة .. ثم قال د . (عادل) في كياسة :

- من ناحيتي لاتوجد مشكلة .. إنه سليم تماما .. وجهازه العصبي متكامل .. وهذه ليست أعراضا نفسية لها اسم !

ولكن .. هذا يعني .. إذا زعم هؤلاء الزملاء أنه لامشكلة هناك فأنا أقول بجعلهم يعيشون في مشكلة حقيقية ..!

- ولكن .. لابد أن هناك شيئا ما خطأ ..

قال د . (محمد إبراهيم) وهو يشعل غليونه :

- بالطبع ..

- وهذا الشيء له اسم ..

- بالطبع ... وهو إلى حد ما يشابه أعراض الاكتئاب أو فقدان النطق الهستيري لكن ما هو بالفعل ؟.. لايستطيع أحد أن يجزم ..

- إذن فمن يستطيع ؟

قال وهو ينفث دخان الغليون كريه الرائحة محدثا سحبا كثيفة :

- المشكلة هي أننا لانعرف شيئا عما سبق هذه الحالة .. الملابسات التي أدت إليها ... ولا نملك أية قصة سوى قصة زوجته الملفقة التي يعوزها الدليل العلمي ..

ثم أشار إلى فم غليونه .. وأردف :

- مثلا هل ستحكي لك هذه السيدة أية صدمة عاطفية سببتها له في تلك الليلة المشئومة ؟!.. هل لديها فكرة عن أزماته المالية أو مشاحناته أو هزائمه ؟!..

قال د . (عادل) مكملا الكلام :

- هل تعرف - وهو الأهم - أية عقاقير يتعاطاها ؟!

قلت في حنق :

- وهل تجد أية علامات لإدمان مخدر معروف ؟..

مخدر لايؤثر في حدقة العين ولا في الجهاز العصبي ولا في العلامات الحيوية ؟

- وهل أنت ملم بكل أنواع المخدرات ؟

- على الأقل أعرف منها ما يحتمل أن يوجد في قرية كهذه .. ثم إنني أعرف أخي جيدا .. إنه لايدخن ولايتعاطى حتى الأسبرين ، وهو حذر جدا بحيث لايمكن أن يدس له أحدهم شيئا منها في طعامه ..

- إذن فالحل الصحيح هو عند زوجته ..

تنحنح د . (محمود) معلنا رغبته في الكلام ..

- إذا أردت رأيي .. هل يمكنني الكلام بصراحة ؟

- بالطبع ..

قال وهو يحاول أن يتحاشى نظراتنا المتشككة :

- أنا لست مستريحا لهذه المرأة القاسية المتسلطة ، وأعتقد أنها تمارس لعبة نفسية ما ، مع أخيك أنت لتحطيمه بهذه الصورة ..

قلت وأنا أمد يدي لكوب الشاي :

- لكنك لم تعرف أخي .. إنه هو رجل البيت بمعنى الكلمة ، كل ما في الأمر أنه يحبها ويحاول إرضاءها قدر استطاعته ..

- هذا لايمنع أنها تسيطر عليه ..

- ثم إنها الآن في موقف لاتحسد عليه ... ليس من مصلحتها أبدًا أن يفقد زوجها وعيه خاصة في هذه الأيام ..

قال د. (عادل) وهو يعيد كوبه للصينية متمتمًا بعبارة شكر :

- على العموم .. هي مجرد أزمة ... والآن علينا أن ننصرف .. لقد حان موعد عيادتي ... وأمامنا رحلة عودة شاقة ..!

- ولكننا سنتغدى سويًا ..

- كلا .. ليكن هذا في ظروف أخرى إن شاء الله ..

وهكذا - وفي صمت - أركبتهم في سيارتي وبدأنا رحلة العودة الشاقة إلى القاهرة ، كنت محرجًا منهم فلم أجرؤ أن أصارحهم بأن فحصهم لأخي وآراءهم لم تزد الأمر إلا سوءًا .. وأن ما قدموه لي لا يساوي ثمن البنزين الذي بذلته في هذه الرحلة الرهيبة ..

لقد وضعت مشكلتي في أيدي ثلاثة من أساطين الطب في مصر فأعادوها إليّ قائلين إنها مشكلتي أنا .. يا له من شعور مرعب ! .. إذن فأنا وحدي .. وحدي تمامًا ..

وعند مدخل عيادته في باب اللوق نزل د. (محمد إبراهيم) من السيارة وسط بحر من عبارات شكري ، واتجه للمدخل .. ثم تذكر شيئًا ما فعاد إليّ وانحنى فوق نافذة السيارة هامسًا لي :

- هل تعرف !؟

- ماذا ؟

- لو كنت مكانك لفكرت في أسطورة النداهة بشكل أكثر جدية .. ألم يخطر لك أن أخاك قد نادته النداهة بالفعل ؟

* * *

عدت للقرية شارد الذهن ، وكان الليل قد أرخى سدوله بظلام لم أعتده أبدًا في القاهرة .. ظلام ثقيل لزج يخنق الأنفاس .. ولايفلح نور كشافات سيارتي في تبديده إلا قليلًا ..

وصلت لدار أخي فقرعت الباب .. استقبلتني (نجاة) وقد بدا بعض الشحوب على وجهها وفي لهفة سألتني :

- هيه ؟.. ماذا قالوا ؟

هززت كتفي في يأس .. ثم قلت في شرود :

- لاشيء .. حالة نفسية لا أكثر ..

- ألم ينصحوك بشيء ؟

- أشياء تهم الأطباء فقط .. ولكن لماذا تسألين ؟
قالت فى لهجة ذات معنى :
- يخيل لى أن هذه هى الليلة ..!
- ليلة ماذا ؟
- ليلة الرحيل ..!
- اسمعينى يا (نجاة) .. لن نعود لهذا مرة أخرى ..
- لن أتكلم .. تعال للداخل وانظر ..

تبعتها فى توجس وهى تحمل لمبة الجاز وظلها يسقط خلفها على الأرض طويلاً مهيبا مرعبا ... معها دخلت غرفة النوم فلم أجد (رضا) فى الفراش ..

- إذن أين هو ؟!

أشارت بأصبع مرتجفة إلى النافذة .. النافذة المطلة على الحقل الطينى المظلم .. هناك كان واقفا ينظر إلى الظلام فى ثبات وظهره لنا .. لم يشعر بوجود أحدنا قط .. اقتربت منه فى تؤدة ووضعت يدى على كتفه فلم يهتز ولم يبد عليه شىء ... عيناه شاخصتان خرساوان وثمة رجفة فى شفتيه كأنه يعتزم أمرا ..

- هل رأيت ؟.. منذ انصرف الحكماء وهو هكذا ..
قلت فى ضيق :
- وما هى المشكلة ؟.. إنه مريض لا أكثر ..



اقتربت منه فى تؤدة ووضعت يدى على كتفه فلم يهتز ولم يبد عليه شىء ..

مصمصت بشفتيها متصعبة .. وقالت :

- كلهم يحدث لهم نفس الشيء .. إنه ينتظر النداء الثاني ..

- (نجاة) .. لا داعي للتخريف ..

ثم إنني نهضت إلى حقيبتي التي نسيتها في غرفته ، وأخذت منها محقنًا وطلبت منها غليه (في تلك الأيام السعيدة قبل اختراع الإيدز والتهاب الكبد الفيروسي كنا نغلي المحاقن الزجاجية) . ثم كسرت أمبولاً من الفينوباربيتون(*) وتناولت ذراعه وأفرغت محتوى الأمبول في وريده ... لم يقاومني كأن الإبرة تخترق عروق شخص آخر ..

بعد قليل بدأت جفونه تنغلق وجسده يتراخى ، من ثم نظرت إليها في ارتياح .. وقلت :

- ها هو ذا .. سينام نومًا هادئًا حتى الصباح ..

- أكيد ؟

- طبعًا .. حتى نداهتك لن تستطيع إيقاظه ..

وتعاونا على إرقاده على الفراش ، ثم جمعت حاجياتي وهممت بالانصراف ولم تحاول أن تدعوني للبقاء معه ولم أكن لأقبل لو فعلت ..

(*) عقار منوم .

في الخارج كان الظلام الدامس مخيفًا وصوت حشرات الحقول يتعالى في إيقاع رتيب .. أغلقت باب السيارة وأدرت المحرك ... هل هذا الصوت القريب قادم من المحرك أم ماذا ؟!.. كلا .. ليس هو المحرك ..

هذا الصوت قادم من بعيد .. من الحقل الليلي .. صوت عميق رقيق كأنه امرأة تتوجع .. يمط ومع الضغط على مقاطع النداء ..

- رااااح ..!.. رااااح ..!

كلا.. ليس ما تقوله هو هذا .. أوقفت المحرك لأسمع بصوت أوضح نعم .. أكاد أقسم أن هذا الصوت القادم من الظلام .. من الحقول البعيدة التي لا يجرؤ إنسان أن يمشي فيها ليلاً مهما كان معه من مصابيح ، هذا الصوت يردد في إصرار محموم :

- (رضا اااااه) .. (رضا اااااه) !

* * *

٤ ـ مرضى آخرون ..

والآن لابد لكم أن تعترفوا بأننى قوى الأعصاب إلى حد غير عادى وأن إيمانى بالعلم لايتزعزع ، لأنى ـ ببساطة ـ بعد أن سمعت ما سمعت ورأيت ما رأيت لم أهتز قط .. وعدت إلى دارنا لأنام ..!

إننى لا أتصور أى أحمق كنته فى تلك الأيام ..

على أننى فى الصباح الباكر لم أنس أن أمر على بيت أخى لأسأل زوجته عن حاله . فقالت وقد أشرق وجهها :

ـ الحمد لله ..

ـ لم يستيقظ ليلاً ؟

ـ نادته النداهة عدة مرات فكان يتقلب فى الفراش لكنه لم ينهض ..!

ـ رائع !

قالت لى وقد بدا عليها الشرود .

ـ لماذا لاتعطيه هذا العلاج .. الحقنة .. كل ليلة ؟

فكرة لابأس بها .. لكنها ليست حلاً على الإطلاق ، ليس مستصاغاً أن يقضى إنسان حياته تحت تأثير الفينوباربيتون حتى لايسمع صوت النداهة ، دعك من أنها جريمة .. جريمة أن تدفع إنساناً للإدمان لمجرد أن تطمئن أنت ... ولكن ماذا نفعل كى لايهرب ؟!

ابتسمت فى شفقة ، وحييتها وانصرفت ..

* * *

كما هو متوقع انتشر خبر عودتى للقرية كالنار فى الهشيم ... وعلى الفور ازدحم الفناء الضيق لدارنا بأهالى القرية الذين جاءوا حاملين أوجاعهم على أكتافهم والأمهات اللواتى يعانى أطفالهن الإسهال والمراهقات اللواتى يؤرقهن النمش على خدودهن ..

الواقع أن كل مخلوق فى القرية فتش فى جسده عن علة ما تسمح له بالحضور لأفحصه . وبالطبع لم أتذمر ولم أتقاض مليماً لأن هذا هو حق أهل قريتى الذى لا جدال فيه ..

لقد جعلنى هذا أتذكر شبابى الأول كطبيب وحدة ريفية ..

وفى الحجرة التى على يمين الداخل لدارنا أعددت ما يشبه عيادة خارجية صغيرة ، وشرعت أمارس أسرار مهنتى المقدسة فى حين أخذت أختى تعد الشاى لعينات منتقاة من الزائرين ..

وعند العصر كان ضغط العمل قد ركد .. وكنت أنا قد انتهيت .. فأزمعت الصعود إلى حجرتى للراحة توطئة لأن أذهب لأخى (رضا) ليلاً ..

انفتح الباب ودخل ثلاثة رجال يبدو عليهم التردد ... وقال لي أكبرهم سنًا :

- نحن نريدك في زيارة منزلية يادكتور ..

ابتسمت وهززت رأسي :

- هل يمكن تأجيل هذا إلى المساء ؟.. إنني ..

- أرجوك ..

قالها في صوت عميق أقرب للأمر ، وتبادلوا النظرات المريبة فيما بينهم .. هؤلاء الرجال يخفون شيئًا مريبًا ، وهو - كالعادة في الأفلام السينمائية - واحد منهم مصاب بطلق ناري في أثناء معركة مع البوليس !.. لكننا لسنا في فيلم سينمائي لهذا حاولت مرة أخرى التملص :

- عندكم الوحدة الصحية ، و....

- أي مبلغ تريد ..

إنهم مصرّون !.. على كل حال فإن فلاحي الشرقية مسالمون وكرماء .. ولا جدوى هنالك من رفض رؤية مريضهم هذا لأنهم مصرّون كالموت ذاته .. وأنا لا أحب الشجار .. على الأقل مع أهل قريتي ..

- إذن هيا بنا ..

وحملت حقيبتي .. وخرجت معهم ..

* * *

- تفضل يا بيه ..

ثمة امرأة تخفي وجهها بطرحة سوداء ، وعدد لا بأس به من الرجال جالسون في وجوم وصمت يدخنون ويتبادلون نظرات ذات معنى ... ثم نفس تصميم الغرف الطينية الموجودة في دارنا .. والبط الذي يمرح بحرية تامة ... وكان هناك مدخل كريه الرائحة يقود لغرفة جانبية مفروشة بالحصير ، وعلى الأرض تمدد شاب وسيم في مقتبل العمر يحدق في السقف بعينين لا تطرفان ... سألتهم وأنا أنظر للشاب :

- هل هو المريض ؟!

لم يرد أحد تعبيرًا منهم عن بلاهة سؤالي ، فقررت أن أزيد الأمر سوءًا بسؤال أكثر سخفًا ..

- ماذا به ؟

- كما ترى ...!

- منذ متى ...؟

- أسبوع ..

انحنيت عليه فلم أستطع فحصه ، اضطررت إلى الركوع جواره وبدأت بمحاولة تنبيهه فلم أفلح .. نفس الأعراض اللعينة ... هل هو وباء يجتاح القرية ...؟ مددت يدي لمعصمه لأقيس نبضه فوجدت شيئًا مروعًا .. حول

من الليف حول معصمه يثبته إلى وتد خشبى مدقوق فى الأرض ، لقد قيدوا هذا الفتى كحيوان مفترس كى لا يفر .. ويالها من فكرة !

رفعت عينى إلى الرجال الواقفين حولى وسألت :

ـ هل .. هل نادته النداهة ؟!!

تبادلوا نظرات التقدير لى ، ثم قال أكبرهم وقد انبسطت أساريره :

ـ أمه تقول هذا .. لقد سمعتها ..

ـ ولماذا استدعيتمونى إذن ؟

ـ كى تثبت هذا أو تنفيه ..

أثبت هذا ؟.. وكيف أثبت هذا وأنا لا أصدق منه حرفا ؟! وفى أى كتاب علمى نجد وصفا دقيقا لأعراض مرض (النداهة) ؟!.. تأملت الفتى المقيد فى رهبة .. إنها أسطورة مرعبة .. وفكرة هذا القيد البشع تزيد الرعب ، جالت بخاطرى رحلة (أوليس)[*] حين كان عليه المرور أمام صخرة عرائس البحر اللواتى يفتن غناؤهن

(*) : (أوليس) أو (أوليسيوس) بطل ملحمتى هوميروس (الإلياذة) و (الأوديسة) التى تتحدثان عن حربه فى طروادة ثم عودته الشاقة إلى زوجته المخلصة (بنيلوبى) .

البحارة فيرمون بأنفسهم فى الماء ليغرقوا .. اضطر (أوليس) إلى تقييد نفسه ورفاقه بالسلاسل إلى صوارى السفينة حتى لا يلبوا نداء عرائس البحر الفاتن ... إن السلوك البشرى الأسطورى يتشابه فى محافظة الشرقية وفى بلاد الإغريق !!

ما علينا ..

واصلت فحص الفتى ... وعريت الجلباب عن بطنه فوجدت شيئا ما .. آثار أنياب .. [illegible] اللحم أسفل الصرة لكنها التأمت تماما ... وهكذا بدأت أفهم ما هنالك ... سألت الرجال فى حذر ..

ـ هل يشرب ؟

ـ لا .. إنه يرفض الماء تماما ..

ـ إذن هاتوا لى بعض الماء ..

جروا ـ فى حماسة مبالغ فيها ـ ليحضروا لى قلة الماء ... ناولوها لى فى شك متدهشين من تحمسى للشرب فى هذه الظروف ..

أمسكت بالقلة وقربتها من وجهه ثم بدأت أسكب الماء ببطء أمام عينيه المذعورتين .. وكما توقعت بدأ وجهه يتقلص .. نظرة مريعة فى عينيه .. صرخة صامتة على شفتيه ... ثم نهض جافلا وهو يعوى ويئن كالذئب الجريح ..

أبعدت القلة عنه وشرعت أمتله ..

نهضت وجمعت حاجياتي في صمت ، ثم أشرت لأكبر الرجال كي يتبعني للخارج ، وهناك أمام عيون كل الواقفين قلت له :

- ليس هذا نداء النداهة ياحاج ..

- إذن ما هو ؟

- إنه مصاب بالكلب ..

- الكلب ...؟!

- نعم .. حيوان مسعور عضه في بطنه منذ بضعة أيام(*) !

- لم يحدث ..

- بل حدث ، ولربما تجاهل هو الأمر ولم يأخذ المصل المضاد لذلك ... والآن هو في مراحل المرض الأخيرة ..

- وموضوع الماء ؟

- هذا المرض كان يسمى قديمًا بمرض (خوف الماء) لأن المريض يهتاج من صوت الماء أو منظره ويتشنج بهذا الشكل الشنيع ، وكذلك تيارات الهواء تحدث تقلصات بلعومية شديدة ..

(*) قد يحدث مرض الكلب نتيجة عضة الثعلب أو الفأر أو السنجاب أو الجمل وليس بالضرورة الكلب .

وأشعلت سيجارة مستطردًا وشاعرًا بالفخر من نفسي :

- وهذا الذهول هو عرض التهاب المخ المصاحب للمرض ..

لم يبد عليه أنه فهم حرفًا مما قلت .. ولم يكن يعنيه أن يفهم ، كل ما كان يريده هو أن يعرف : ماذا يفعل ؟

- يجب نقله فورًا إلى إحدى مستشفيات الحميات بالزقازيق ..

- ولكن ..

- فورًا ..!.. إن احتمال نجاته لايتعدى النصف بالمئة لكن يجب أن نحاول ..

- ولكن ..

- فورًا ..!.. إن حياة هذا الفتى بين أيديكم الآن ..

قال أحدهم في فظاظة وتحد .

- لكن أمه سمعت النداهة يادكتور ..

التفت إليه في غيظ وصحت :

- إذا اعتقدتم في وجود النداهة فهذا شأنكم ، لكن هذا الفتى مسعور .. هل تفهمون هذا ؟.. ولن يعيش ليرى صلاة الجمعة القادمة !

- والعمل ؟

- سبحان الله !.. قلت لكم مستشفى الحميات !

ودارت مناقشات جانبية شديدة العمق والغباء ... من الواضح أنهم لن يأخذوه لأى مكان وأننى سأضطر إلى إبلاغ المركز عن احتجازهم لمريض فى حالة خطرة، لكننى - فى قرارة نفسى - وددت لو كان بإمكانى أن أجد تفسيرًا لحالة أخى بهذه السرعة والسهولة .. أعرف أن أحدًا لم ينجو من مرض القلب فى تاريخ الطب حتى اليوم، لكن رغبتى فى إيجاد حل لمشكلة أخى كانت شديدة الإلحاح ..

انتهت المناقشات، من ثم تقدم أكبر الرجال إلى وصافحنى فى حزم :

- شكرًا يا دكتور .. والآن كم أجرك ؟!

طلبت رقمًا فادحًا لأننى أقسمت أن من واجبى أن أنتقم من هؤلاء الحمقى إلا أنه دفعه عن طيب خاطر، وأمر أحدهم كى يرافقنى إلى دارى، قبل أن أنصرف قال لى :

- أنصحك أن تؤمن بالنداهة لأنها لاتنادى إلا من لايصدقون وجودها !!

☆ ☆ ☆

٥ - الدكتـور (عاصـم) ..

كان الوقت يقترب من السابعة مساء حين اتجهت بسيارتى للوحدة الصحية فى قريتى، وهى مبنى عتيق متهدم كانت الرطوبة تأكل على جدرانه، واحد من مئات المبانى المماثلة على شكل حرف (ت) الإنجليزى تملأ ريفنا الطيب، وتقدم للفلاحين خدمات محدودة جدًا ..

لم يكن هنالك عمال ولا خفراء من ثم صعدت فى السلم المتحطم إلى الطابق العلوى حيث سكن الطبيب، وقرعت الباب فى كياسة ..

- لحظة ..

وسمعت خطوات بالداخل، ثم انفتح مزلاج حديدى .. وتبدى لى وجه الطبيب فى ضوء مصباح الجاز الذى يحمله .. كان شابًا فى منتصف العقد الثالث من عمره لكن شعر رأسه قد زال أو كاد .. وعلى عينيه نظارة سميكة جعلت جفونه تبدو أصغر وأضيق مما هى عليه، وكانت ذقنه نصف نامية ..

- أفندم ؟

- قمت بتعريفه على نفسى - فابتسم لى فى مودة، ودعانى للداخل وهو يصيح :

- عرفت الآن لماذا لم أر مريضًا واحدًا فى هذا اليوم التعليق !

وقادنى إلى غرفة نظيفة بها فراش جواره بعض الكتب والمجلات ، وموقد كيروسين عليه وعاء شاى آخذ فى الغليان . وعلى الحائط تحرك برص صغير أزعجته أصواتنا !. من الواضح أن الطبيب كان راقدًا فى الفراش يقرأ حين أتيت ..

فى حرج أزاح جزءًا من الملاءة ليسمح لى بالجلوس على الفراش ، ثم شرع يزيد كمية الشاى فى البراد ، وخلع شبشبه وتربع جوارى على الفراش وهو يسب غسال الوحدة سبابًا مقذعًا لسبب لم أفهم ما هو . الخلاصة أن استقباله كان شديد المودة على قدر إمكانياته ..

قال لى :

- أنا الدكتور (عاصم فتحى) .. هذا ثالث عام لى فى هذه القرية .. إننى سمعت عنك يا دكتور (رفعت) الكثير .. الكثير جدًا ..

هززت رأسى فى تواضع وقلت :

- لقد جئت لاستشارتك فى أمر صغير ..

ضحكت فى مرور :

- الأستاذ العظيم يطلب استشارتى ..!.. يالى من محظوظ !

قلت فى جدية :

- الأمر جد لامزاح فيه ..

- وما هو ؟

حكيت له قصة مريض الكلب وموقف أهله ، ثم سألته :

- ما هو التصرف الإدارى فى حالة كهذه ؟!

نهض ليصب الشاى فى كوبين محدثًا قرقرة محببة للنفس .. وقال :

- كم ملعقة سكر ؟.. اثنين ؟.. حسن .. كنت أقول إن التصرف الصحيح هو إبلاغ المركز ويتم ترحيل المريض إلى مستشفى الحميات وعمل محضر لأهله ..

هذا هو الحل الصائب .. ولكن ..

- ولكن ماذا ؟

نظر لى نظرة جادة وهمس :

- هل تتوقع فائدة ما من هذا ؟!.. مريض كلب فى آخر مراحل المرض ..

- وما معنى هذا ..؟

- معناه أنك ستسبب مشاكل لاحصر لها لأهله ، كفاهم ما هم فيه ..

- ونتركه يموت ؟

- إنه سيموت على كل حال .. أنت - كما يقولون - ابن القرية لكنك لاتعرفها ..



نهض ليصب الشاي في كوبين محدثًا قرقرة محببة للنفس .. وقال :
ـ كم ملعقة سكر ؟..

وناولني كوب الشاي ، ثم تنهد .. وأردف :

ـ في الريف يجب أن يتحلى المرء بشيء من المرونة ... إن لهذه القرية قانونها الخاص غير المكتوب .

تأملت الغرفة حولي مفكرًا .. إن في كلام هذا الفتى شيئًا من المنطق لكن مشكلتي لم تنته بعد ... قلت له وأنا أرشف الشاي :

ـ هل سمعت عن النداهة ؟

هز رأسه .. وشبح ابتسامة تتلاعب على ثغره .. واصلت السؤال :

ـ هل قابلتك حالات مماثلة ؟!

ازدادت الابتسامة اتساعًا .. ثم إنه نهض إلى مقعد خشبي صغير جوار الفراش تكدست عليه الكتب والأوراق ، وتناول كراسة صغيرة مهترئة الغلاف .. وعاد للفراش ... وقال :

ـ سأريك الآن شيئًا لم يطلع عليه أحد من قبل ..

ـ وما هو ؟

ـ إنها كراسة مذكراتي ..

وشرع يقلب الكراسة .. أوراق عديدة بخط صغير أنيق مليئة بكلام فارغ .. رسوم لوجوه فتيات ، وأبيات شعر ..

وكلام عن ألمه وعذابه وندمه على أشياء كثيرة لايهمني أن أعرفها .. يا للكارثة !.. من المستحيل أن يقاوم إغراء قراءة كتاباته على أذني العجوز المنهكة .. فلقد ألقى إليه القدر بمستمع معتوه في الثامنة مساء وهو لن يتركه يفلت أبدًا !

إلا أنه لم يتل على شيئًا لحسن الحظ .. بل قلب الكراسة إلى صفحتين في المنتصف .. وشرع يقرأ وهو ينظر إلى من حين لآخر :

– في أكتوبر ٦١ أصيب (الزغبي) فرحات وهو فلاح في السادسة والثلاثين من عمره بمرض غريب ..

الأعراض : شرود تام ، وانفصال عن الواقع .. لايأكل ولايشرب ولايتكلم ..

الفحص : كل العلامات الحيوية سليمة .. الحالة العصبية سليمة .. لاتوجد علامات لعقاقير مخدرة من أي نوع ..

الأبحاث : السكر ووظائف الكلى والسائل النخاعي الشوكي على مايرام ..

تاريخ الحالة : يزعم أهل المريض أنهم سمعوا نداء امرأة يدعوه باسمه قبل ظهور الحالة بدقائق ..

في نوفمبر ٦١ نام أهل البيت ، وحين استيقظوا لم يجدوا المريض في البيت ولا في أي مكان ..

ثم إنه قلب الصفحة إلى صفحة أخرى .. ورشف جرعة من الشاي .

– في فبراير ٦٢ تتكرر القصة مع (سعيد جابر) .. عامل بناء في الخامسة والعشرين ... نفس الأعراض .. وكل شيء ..

في مارس ٦٢ .. حادثة مماثلة تحدث (لإبراهيم السقا) .. مراهق في الثالثة عشرة من عمره ..

في ابريل ٦٢ .. (رضا إسماعيل) ، فلاح في الرابعة والثلاثين .. هو في غيبوبة الآن لكنه لم يفق بعد ..

في كل حادثة من هذه الحوادث ذكر أهل المريض اسم النداهة ..

ما هي النداهة !؟

النداهة هي إحدى الشخصيات المرعبة في الأدب الشعبي ، وهي – كما يجمع من وصفوها – غولة تتنكر في شكل أنثى حسناء .. تتجول ليلًا في الحقول المظلمة وتنادي شابًا بعينه باسمه مرارًا ، ما إن يسمعها الفتى حتى يهرع للحاق بها على الرغم من أهله ، فإذا ما لاقى الفتاة وارتمى في أحضانها تحولت لغول ضخم يلتهمه حتى العظام ..

توجد شواهد عدة على وجود كائن له هذه المواصفات ..

(محمد أمين) - فلاح عمره خمسون عاما - شاهد فى حقله ليلا امرأة طويلة القامة تسير فى تؤدة وتنادى : (زغبى) .. (زغبى) .. وهو يقسم إنها كانت تشع بلون أخضر مخيف ، طبعا لم يجرؤ على أن يذهب إليها بل عاد لبيته ليتدثر بأغطيته ويتلو الأدعية ..

(السيد الشرقاوى) - بقال القرية - فى أثناء عودته ليلا جوار الترعة شاهد فتاة حسناء تمشى فوق مياه الترعة ولا تغرق ....

(أحمد عباس) - فلاح - سمع صوت نداء امرأة يردد : (إبراهيم) .. (إبراهيم) ! فهرع ليرى ما هناك ، وجد امرأة واقفة فى الحقل وحدها .. اتجه ليسألها عما تريده من (إبراهيم) .. استدارت له ببطء .. يقول إنه رأى أجمل وجه رآه فى حياته لكن .. حدقتيها ... كانتا حمراوين بلون الدم ، وأن العالم كله دار به حين رأى المشهد .. ولم يدر إلا وشقيق زوجته يحمله إلى داره مغشيا عليه من هول ما رأى ..

الطفل (صبحى محمود) - ٩ سنوات - شاهد امرأة تعبر حقل أبيه ليلا فى ضوء القمر دون أن تترك ظلا ..

قلت فى سخرية :

- إنه طفل قوى الملاحظة حقا ..

لم يبد على الدكتور (عاصم) أنه لاحظ سخريتى ، وواصل القراءة :

- فى كل الحالات كان هناك نداءان .. الأول يؤدى بالمريض إلى حالة الذهول ، والثانى هو النهائى الذى يختفى بعده .. الفاصل بين النداءين هو أسبوع إلى أسبوعين ..

بعض أهالى القرية يقيدون (المندوه) لمنعه من الاختفاء ، وبعضهم يحرسون المريض حراسة محكمة .. لكن هناك لحظة ما من الإهمال أو النوم لابد أن تحدث ... عندئذ ينتهى كل شىء ويلبى (المندوه) ..

- ألم يحاول أحدهم مطاردة صاحبة الصوت ؟

- بالطبع لا ... لأن الأسطورة حية فى نفوسهم ، وهم واثقون أن من يعوق النداهة عن أداء عملها سيكون فريستها القادمة !

ورشف ثمالة الشاى من كوبه .. وقلب الصفحة :

- هناك عدة احتمالات لهذا الذى يحدث ..

الاحتمال الأول : هو أن النداهة كائن حقيقى ..

- احتمال غير مقبول ..

قال لى وهو يضع الكوب جانبا ليغير وضع جلسته :

ـ أوافقك على هذا .. لكنه الاحتمال الوحيد بعد استبعاد الاحتمالات الأخرى .. وهي سخيفة كما سترى ..

الاحتمال الثاني: أنه وباء لانعرفه اجتاح القرية وأعراضه عصبية تمامًا مثل وباء الكورو(*) في وسط إفريقيا ، وفي هذه الحالة فإن الأمر يستدعي إبلاغ من هم أقدر منا ، كمنظمة الصحة العالمية أو النمرو(**) ..

الاحتمال الثالث : هلوسة جماعية أصابت الكل .. وهو احتمال عسير وصعب التصديق ... لكنه أفضل من الاحتمال الرابع ..

الاحتمال الرابع : أن هناك عدة جرائم قتل نظيفة تمت باستغلال هذه الصورة الأسطورية وأن هناك قاتلًا عبقريًا قام بزخرفة جرائمه بحيث لا يتطرق الشك إلى أحد أن هناك نذالة حقيقية ..

قلت له متثائبًا :

(*) (الكورو) وباء فيروسي يصيب المخ ويسبب ضعفًا متواصلًا حتى الموت ، وهو ناجم عن عادة إفريقية قبيحة هي أكل مخ الموتى نيئًا لاتقاء شرهم !

(**) (النمرو) NMRU وحدة الأبحاث الطبية التابعة للبحرية الأمريكية .

ـ لقد أجدت عرض الحقائق .. لكنني أعتقد أن الأربعة الاحتمالات كلها خيالية ومتناقضة ..

ـ الاحتمال الخامس : هو أن لكل حالة تفسيرًا على حدة .. فالحالة التي رأيتها اليوم كانت مصابة بالكلب ، ربما كانت الحالات الأخرى تعاني أشياء أخرى لم أعرفها أنا ..

نظرت لساعتي ... كانت التاسعة تمامًا .. وتذكرت أخي .. إن ما يجول بخاطري الآن هو شيء واحد .. أن أذهب إليه لأقبله في فراشه وأريح دماغي مما قد يكون وما قد يحدث ... إن عرض الطبيب لمعلوماته كان جيدًا منظمًا لكنه لم يقدم لي الكثير ... وتأملت الكتب التي وضعها جوار الفراش على الكرسي .. يا لها من مجموعة غريبة .. كتاب (كفاحي) لأدولف (هتلر) .. وبعض كتب (نيتشه)(*) .. ومجموعة من روايات الخيال العلمي .. وبعض المجلدات الطبية أكثرها عن علم الطفيليات .. وأربعة دواوين شعر ..

(*) (نيتشه) فيلسوف ألماني اشتهر بدعوته للقوة ونبذ الضعفاء والمرضى من المجتمع ... وفلسفته القاسية غير الإنسانية كانت هي أساس فكرة النازية التي تبناها (أدولف هتلر) . وأشهر كتب نيتشه هو (هكذا تكلم زرادشت) .

نظرت له وقلت :

- شكراً على عرضك المشوق وعلى استقبالك ، لابد لي أن أنصرف ..

- لكننا لم نتحدث بعد ..

- فيما بعد .. لقد كان يومي شاقاً ..

- نعم .. أعلم هذا وآسف له ..

- على كل حال ستجدني هنا مراراً ..

- وكم من الوقت ستقيم هنا ؟

- الواقع أنني لا أدري ..

وهرشت رأسي في تعب ، من الغريب أن هذا هو يومي الثالث فقط في القرية .. كأنه دهر!... قلت في إنهاك :

- المفروض أن إجازتي من الجامعة هي أسبوعان ... إلا أنني سأظل هنا حتى أعرف كل شيء عن أخ.....

وقبل أن أخبره بقصة أخي دق الباب في إلحاح ... تركني واتجه ليفتحه حاملاً المصباح ، وظللت وحدي في الظلام أسمع محادثة هامسة بينه وبين ما يبدو أنه أحد عمال الوحدة وقد عاد من جولته في الخارج ... بعد دقيقة عاد لي والمصباح يلقي ظلالاً مرعبة على وجهه .. وقال :

- ما هذا هذا (مصطفى) .. خفير الوحدة ، يعتذر عن اضطراره النزول إلى القرية لأن أهلها نادوه لنبحث عن شخص ما معهم ..

- شخص مختلف آخر ؟!

- بالفعل .. وأنت تعرفه جيداً ..

أخي (رضا) !.. هل حدث هذا ؟.. ولكن الطبيب لا يعرف بعلاقته بي .. ولم يربط لحظة بين اسمي (رفعت إسماعيل) و (رضا إسماعيل) ... إذن من هو ذلك المفقود الذي أعرفه أنا جيداً ..؟!

- هل تذكر الفتى المسعور الذي رأيته عصر اليوم ؟

- بالطبع ..

- حسن .. لقد لبى نداء النداهة منذ ساعة !!

☆ ☆ ☆

٦ - أيـن هـي ؟!

حين عدت لدارنا في ساعة متأخرة من الليل بدت أمي قلقة من منظري المشوش المضطرب ، وشرعت أختي - بعينين محمراوين من أثر السهر - تسائلني عما هنالك .. حتى أنهما جعلتاني أقسم إن شيئا ما لم يصب أخي (رضا) .. أكدت لهما أنني مُنهك لا أكثر ..

وفي غرفتي المتواضعة بجدرانها المطلية بالجير الأخضر جلست أدخن وأتصفح كتبي التي لم يمسسها أحد منذ أيام مراهقتي ..

يا للهزيمة المروعة التي تلقاها تشخيصي بعد أقل من أربع ساعات ! لقد فر الفتى ملبيا نداء النداهة . وبالطبع يقوم أهله الآن بتوجيه اللعنات إلى ذلك الحمار المغرور - الذي هو أنا - الذي زعم أن ابنهم مسعور وبالتالي جعلهم أقل حذرا في تعاملهم مع الفتى ... أنا لا يضايقني أن يقال إنني لا أفقه شيئا . فلطالما قيل ذلك لكني أكره أن تنهزم الحقائق العلمية على يدي وبهذه القسوة ..

حين نادى (كوخ).. العبقري الألماني بأن مرض الكوليرا تسببه باكتريا واوية تحداه أحد خصومه وشرب مزرعة كاملة من باكتريا الكوليرا أمام الشهود

- مزرعة تكفي لقتل مئة رجل - فلم يصب بشيء ولا حتى عسر هضم(*) !!. وهكذا قهر العلم لأسباب لا يمكن تفسيرها !

نفس الموقف يتكرر معي على نطاق أضيق ..

أنا أعرف أن التهاب المخ المصاحب لمرض الكلب يسبب جنونا مؤقتا .. وقد يفر المريض من ذويه ، لكن هذا يحتم أنهم سيجدونه ميتا في مكان ما بالقرية خلال أربع وعشرين ساعة .. فإذا لم يجدوه فمن يقنعهم أن ما حدث هو أمر لا دخل للنداهة فيه ؟!

يا للحيرة ..!..

* * *

في الصباح ذهبت - محمر العينين مشوش الشعر - للاطمئنان على أخي ، ففتحت لي (نجاة) الباب .. فما إن رأتني حتى ابتسمت في تلطف .. وهتفت :

- سمعت أن ابن أبي عبد الرازق قد نادته النداهة أمس ..

قلت لها في ضيق معاتبا :

- الناس تقول صباح الخير أولا ..

(*) قصة حقيقية .

واصلت الكلام في قسوة :

- يقولون إنهم أزالوا رأيك تكنك قلت إن حيوانًا مسعورًا عضه ..

- عضًا ؟

- أي أنك لم تعرف ..

- هذا يدعو للفخر ..

ونظرت في عينيها .. وضغطت على أسناني ، ثم تمتمت :

- (نجاة) ؟.. ماذا تريدين ؟.. ما الذي يسرك في هذه القصة إلى هذا الحدّ ؟!

هل أنت سعيدة إلى هذه الدرجة لفشل أخي زوجك ؟!

شدهت لفترة .. ولم تدر ما تقول ، من ثم خفضت رأسها ودعتني للدخول ..

- لامؤاخذة ... كنت أتحدث من غلبي ...

- وهشت الأولاد الذين يلعبون من طريقي وأردفت :

- أنت لاتصدق .. ولهذا قلت ما أقول .. لامؤاخذة !

ودخلنا غرفة أخي ، وكان كل شيء كما هو سوى أنها فعلت الشيء الذي كنت أريد أن أفعله .. ربطت معصمه في عمود السرير بإشارب من الحرير .. وكان نائمًا مفتوح الفم ، وقد بدا منهكًا إلى أقصى حد ..



ربطت معصمه في عمود السرير بإشارب من الحرير .. وكان نائمًا مفتوح الفم ، وقد بدا منهكًا إلى أقصى حد ..

قالت (نجاة) مقهورة :

ـ ظل طوال الليل ينهض ويتقلب ؛ لهذا اضطررت لتقييده .. ظللت الملعونة ثلاث ساعات تناديه أمس ..

ـ وهل (رضا) عاجز عن فك هذا القيد الحريرى ؟

ـ إنه ضعيف جدًا .. ألم تلحظ هذا ؟!.. ثم إن عقله مشوش ولا يستطيع حتى معرفة كيفية فك هذه العقدة ..

ـ والنتيجة إياه .. ابن أبى عبد الرازق .. لقد كان مقيدًا وهرب ..

ـ كلا .. لقد فكوا ذراعه على كلامك !، تركوا الغرفة خمس دقائق ليتفقوا على ما يفعلون .. حين عادوا للغرفة لم يجدوه ووجدوا النافذة مفتوحة ..

ثم دمعت عيناها .. وهمست فى غيظ :

ـ وأنت قلت إن حيوانًا مسعورًا عضه !

☆ ☆ ☆

قال د. (عاصم) فى ثقة :

إن رأيك العلمى لا يقبل الشك ، إن الحمى المخية جعلته يهرب ، ولكن كيف تقنع هؤلاء الحمقى ؟!

كنا جالسين فى غرفته بالعيادة ، غرفة الفحص .. وكان زحام المرضى قد بدأ يقل .. وكان وجهه فى نور الصباح أكثر بشاعة مما رأيته ليلاً .. كأنه بومة عجوز متشككة ترتدى المعطف الأبيض ..

قلت له فى شرود :

ـ عندى فكرة ما ..

ـ ما هى ؟

ـ أنت مهتم بهذه الأسطورة مثلى تمامًا ..

ـ طبعًا ..

طرقت المنضدة بمجمع قبضتى ، وصحت :

ـ نحتاج إلى الكثير من الصبر والتأنى ..

ـ لا أفهم ..

ـ قلت لى بالأمس إن هناك مريضًا لم يلبّ نداء النداهة بعد ..

ـ نعم .. واسمه (رضا إسماعيل) ..

لماذا لم أخبره أن المدعو (رضا إسماعيل) هو أخى ؟!.. لا أدرى .. إنه حافز خفى لا أدريه جعلنى أفعل هذا .. نفس الحافز الذى جعلنى لا آخذ حقائبى إلى بيت الدكتور (ريتشارد كامنجز) فى يوركشاير .. وهو نفس الحافز الذى جعلنى أقرر المبيت فى الحانة القذرة فى تلك القرية الرومانية البائسة ، وقد أقسمت ـ منذ زمن بعيد ـ أن ألبى دائمًا تلك الحوافز الغامضة لأنها تصيب دائمًا ..

قلت له :

ـ سنقوم بترتيب أنفسنا ... سنوزع نوبتجيات سهر نقوم فيها بمراقبة المنطقة المحيطة بداره ... وإذا ظهرت هذه النداهة المزعومة فسنلقي القبض عليها فورًا ..!

نظر لي لحظة ليرى إن كنت جادًا .. ثم هرش صلعته مفكرًا .. وقال :

ـ إنها خطة مرهقة ..!

ـ بالفعل .. لكني لا أتوقع أن يدوم انتظارنا أكثر من ليلتين ..

ـ وحالات الطوارئ الليلية ؟!

ـ يمكنك أن تخبر عاملًا تثق به بمكانك بحيث يستدعيك إذا ما اقتضى الأمر ذلك ..

أخذ يفكر قليلًا .. وفي هذه اللحظة دخلت ممرضة حسناء الغرفة حاملة زجاجة صغيرة بها ترمومتر .. وما إن رأتني حتى هزت رأسها محيية إياي والتفتت إلى الدكتور (عاصم) قائلة بصوت مبحوح :

ـ لقد انتهت آخر الكشوف يا (عاصم) ..

يا (عاصم) ؟.. وإزاء نظرة الدهشة التي ارتسمت على وجهي هش وجه الدكتور (عاصم) وأشار للفتاة قائلًا :

ـ معذرة .. لقد نسيت أن أقدمها لك .. (عواطف) زوجتي ..!

ثم عاتبها باسمًا :

ـ (عواطف) ..كم مرة قلت لك ألا تناديني باسمي مجردًا أمام ثالث ..؟

ضحكت في دلال وقالت بلهجة قروية جريئة وهي تتحسس رقبتها :

ـ إنني أعرف د. (رفعت) جيدًا .. إنه ابن القرية وليس غريبًا ..

هززت رأسي محييًا إياها بما معناه (تشرفنا) .. ثم سألتها :

ـ هل تعرفين أسرتي ؟!

ـ ليس تمامًا .. إنني أصلًا من فاقوس ..

شيء غريب !.. لم يجل بخاطري أبدًا أن الرجل متزوج ... إن منظر غرفته التي شهدتها بالأمس ومنوال حياته يوحي بالعزوبية .. وأين كانت زوجته ليلة أمس حين كنت عنده ؟!.. ثم إن لدي بعض التحفظات على زيجة كهذه قد لا تمنح أقصى درجة من التكافؤ الثقافي والاجتماعي .. لكن مالي أنا وهذا ؟.. إنهما سعيدان .. وأنا أفهم ما تفعله الوحدة في النفوس ... على الأقل هو قد أكمل وجوده

الفسيولوجى ، أما أنا فما زلت طفلًا يلهو جوار بركة الحياة قاذفًا فيها حجرًا من وقت لآخر لكنه أبدًا لا يجد الشجاعة ليسبح فيها ..!

قال د . (عاصم) وقد خمّن نصف ما أفكر فيه :

ـ إنها بنت حلال .. تفهمنى تمامًا ولا أرضى عنها بديلًا ..

ثم قال وقد خمّن النصف الآخر :

ـ أمس كانت قد نزلت القرية لإجراء ولادة عاجلة ، إنهم هنا يفضلون أن تقوم قابلة أو ممرضة بذلك ..

ـ لهذا لم أرها ليلة البارحة ..

ـ ولهذا أغلقت سكن الممرضة تمامًا لأننا نعيش سويًا فى سكن الطبيب .. لقد صارت هذه الغرفة الضيقة بيتنا الآخر ..

مددت يدى أعبث بالترمومتر الذى فى الزجاجة .. ثم قلت :

ـ إذن متى يبدأ مشروعنا الصغير ..؟

ـ الليلة إذا أردت !

☆ ☆ ☆

ـ إنه الليل ...

مرة أخرى يعود هذا الكيان الغامض الأسود الملىء بالأسرار ... فى غرفتى أرتدى ثيابى استعدادًا للحاق بالدكتور (عاصم) عند الوحدة الصحية ، ارتديت حذاءً خفيفًا ووضعت فى جيبى مصباحًا كهربيًا ، وتأكدت أن معى من السجائر ما يكفى لسهرة طويلة قاسية ..

ثم إننى فعلت الشىء الذى لم أكن أعتقد أننى سأفعله أبدًا .. من بطانة حقيبة الكشف أخرجت مسدسى الصغير الذى قمت بترخيصه بعد مغامرتى مع الكونت (دراكيولا) ... وتأكدت من حشوه ثم دسسته فى جيبى ..

أما الخطوة التالية ـ وهى الأهم ـ فكانت أننى أخذت المصحف الصغير الذى أعطتنى إياه أمى ، ووضعته فى جيب البذلة الداخلى ..

لقد استعددت لكل شىء ..

☆ ☆ ☆

٧ ـ المقـــابلـة ..

عند الوحدة الصحية الجاثمة كشبح أسود في الظلام قابلته .. كان واقفًا وقد ارتدى (بول أوفر) أسود عالي الرقبة . لا أحب كثيرًا قضاء الليل مع هذا الخفاش الأصلع لكن لا مفر لي .. إن زوجين من الأعين هنا ـ حتمًا ـ أفضل من زوج واحد حتى إذا كان كلانا ينظر للعالم من خلف زجاج نظارة سميكة ..

ـ هاأنذا ..!

صحت به . فوثب في مكانه هلعًا وشرع يسعل ويحوقل ... يا لك من أبله ! إننا لم نبدأ بعد ... وما إن تعرف عليّ حتى وجه ضوء البطارية إلى وجهي وشرع يضحك في هستيريا مرددًا ..

ـ لقد ظننتك هي ..!

ـ هذا هو ما تريده بالفعل ..

ـ لكم أنا سعيد أنك لست هي ..!

ـ د . (عاصم) ..

ـ نعم أيها الزميل ؟..

ـ إن كونى لست هي لا يعطيك الحق في إصابتي بالعمى بهذا الكشاف !

استدرك معتذرًا ، وأطفأ الكشاف وقد بدا عليه الخجل ، وبدأنا في صمت السير على الطريق الترابي المؤدي إلى دار أخي .. كان قد وصفه لي بدقة صباح اليوم وتظاهرت بأنني أجهله ، وبعد دقائق بدأ صوت لهاثنا يتعالى فلم يكن واحد منا يتمتع بلياقة طيبة ..

لا أحب كثيرًا هذا الصمت المريب ..

ومن بعيد لاحت لنا دار أخي ... كنقبة حزينة مسربلة باللون الأسود .. نظرت له وهمست مشيرًا إلى الجهة الغربية :

ـ فلتتوغل أنت في هذه المزروعات وانتظر هناك ..

ـ وأنت ..؟

ـ إذا حدث ما يريب عليك أن تصدر صوت البومة .. وإذا كان الخطر داهمًا فلا عليك .. اصرخ ..

ـ وأنت ؟

ـ سأتوغل أنا في حقل الذرة القبلي ..!!

* * *

الحقل القبلي هو المكان الذي سمعت منه تلك الصوت ينادي أخي .. توغلت بين أعوادالذرة التي تتجاوز بارتفاعها قامتي .. صوت خرفشة الأوراق الجافة وأشياء قاسية كنصل السكين تخدش وجهي . سيكون من الصعب رؤية أي شيء من هذا المكان .. حتى ولو كان هذا الشيء على بعد سنتيمترات من وجهي ..

ظللت أتوغل وأتوغل حتى وصلت لمساحة خالية في الحقل فتوقفت وقد تسارعت دقات قلبي من الانفعال .. رفعت رأسي للسماء فرأيت النجوم واضحة مميزة كما أراها من قبل .. ومن بعيد استطعت أن أرى بيت أخي وحيدًا باهتًا مسربلًا بالظلام ..

لم يكن هناك قمر .. وأنا أفضل ذلك ، لأن الظلام الدامس لا يخيف .. إن ما يثير الهلع هو الأضواء الخافتة الظلال لأنها تثير الخيال ، تذكرت قصة الغرفة الحمراء لـ (هربرت جورج ويلز) .. حين كان على البطل أن يقضي ليلة سوداء في غرفة مسكونة بالأشباح ، وقد أضاء شموعًا كثيرة لتؤنس وحدته لكنها زادت رعبه حتى كادت تؤدي به للجنون حين كان عليه أن يواجه الظلال التي يحدثها انطفاء شمعة من حين لآخر !

نعم .. أنا أفضل الظلام الدامس بلا شك .. الظلام الدامس المتجانس المسطح .. إن إيقاد شمعة أو مصباح خافت أو ضوء القمر الشاحب لكفيل بأن يجعلني أموت هلعًا ..

ومضت الدقائق ..

افترشت الأرض وجلست القرفصاء .. والآن هو ذا عدوي الأساسي الذي لم أتخلص منه أبدًا والذي لم يخطر لي ببال .. الملل ..! تبًا لهذه التفاهة الكسول ..! ما ذنبي أنا كي أقضي ليلتي بانتظار اللحظة التي تراف فيها تلك الملعونة بحالي وتأتي من عالمها الجهنمي لترعبني ؟!..

إذا لم تفعل ذلك الآن فلا داعي لتفعله أبدًا ..

☆ ☆ ☆

مضت ساعتان ..

المشكلة في هذه المسوخ المرعبة أنها لا تأتي أبدًا حين تريدها ..

والآن يغفو (رضا) في فراشه غير عابئ بشيء ، وتنام (نجاة) جواره تفكر في مصيرها من بعد رحيله ؛ وكل القرية نائمة لا تدرى شيئًا عن المخبولين اللذين قررا قضاء الليل في الحقول دون مبرر ..

أشعلت سيجارة وطفقت أدندن ..

لا أدري لماذا تذكرت هذا اللحن الحزين في هذه اللحظة بالذات :

لفين الولد يا أمه ؟ قالت نسي أهله ..

كان اللحن مناسبًا للموقف لكنه خرج من فمي غليظًا أجش كأنه نذير ، ولقد أثار رجفة في عروقي أنا نفسي ... ما الذي جعلني أتذكره ؟!

وهنا ..

انتابني شعور غريب بأنني لست وحدي . في مجال بصري لمحت شيئا ما .. أدرت وجهي في بطء تجاه هذا الضوء .. فلمحت ما يشبه فتاة طويلة مسربلة بثوب طويل أسود تسير في تؤدة على بعد خمسة أمتار مني في خفة كأنها (تسري) ولا تمشي .. لايوجد أي نوع من الانبعاج تحت ثوبها يوحي بحركة القدمين ..

عذاب البلـد لمــا   الغولــة ثابت له

لما تدر وجهها لي كأنها لا تراني أمامنا ... وفي هذا الظلام لم أكن لأراها حتى لو نظرت لي ... أحسست بعمودي الفقري يتجمد وقلبي يكاد يثب في حلقي ... إنها تنظر .. إلى دار (رضا) ..

فين الولد ياولاد ؟   قالوا الولد مسحور

أما ما جعلني أدرك أن الأمر كله ليس وهما فهو هالة الضوء الأخضر العجيبة المحيطة بها .. كأنها تشع هذا الضوء من الداخل .. من تحت ثوبها ... إن ما أراه الآن لهو شيء غامض بكل المقاييس .. شيء لا أدري كنهه لكني لا أجرؤ على ترك المكان قبل فهم ما يحدث ..

مسافر وراهــا بلاد   وادي السقين بتدور

والآن توقفت الفتاة وقامتها منتصبة وصدرها يعلو ويهبط . ثم رفعت عقيرتها بالنداء وهي تنظر لأعلى كذئب يعوي أمام قرص القمر ..

ـ (رضا اااااه) !.. (رضا ااااه) !

إنه نفس الصوت الطويل ـ كالنحيب ـ المدوي كأنه قادم من أعماق الجحيم ... نفس المقاطع الممطوطة .. نفس الحشرجة التي سمعتها في تلك الليلة عندما عدت من القاهرة ..

ـ (رضا اااااه) !.. (رضا ااااه) ..!

والآن حان وقت انتهاء هذه المهزلة ... نهضت من مكاني وفي هدوء وحذر اتجهت إليها وكانت تدير ظهرها لي .. ضوءها الأخضر الغامض يغلف معالم جسدها ويسقط على ثيابي ... حين صرت خلفها تماما تنحنحت لأبدأ الكلام .. فقد انحشرت الحروف في حلقي ..

فين الولد يامه ؟   قالت نسي أهلــه

قلت وأنا أرتجف :

ـ ماذا تفعلين هنا أيتها الفتـ....

وهنا التفتت لي ..

عذاب البلـد لمــا   الغولــة ثابت له

من ذا الذي قال إن النداهة رائعة الجمال ؟!.. أنا لم أر


وشرعت أجرى وأتعثر .. وألهث .. ثم أجرى .. أعواد الذرة تلطم وجهى

ولم أتخيل قط وجها مريعا كهذا الوجه ... وجه شاحب كالموت .. عينان عميقتان حدقتاهما حمراوان بلون الدم ... شفتان مشققتان .. لا أنكر أن هناك جمالاً ما من نوع خاص كجمال الساحرات الشريرات كان موجودًا لكنه جمال قاس شنيع .. خصلات شعرها سوداء فاحمة مصففة بعناية . وعنقها طويل شامخ و .... شامة كبيرة زرقاء على الخد الأيسر ..

لم يتسع الوقت لأعصابى كى تستوعب كل شىء ... لأنى صرخت وصرخت كما لم أصرخ من قبل ... نسيت كل شىء عن المسدس الذى فى جيبى .. لم أكن أريد سوى الخروج من هذا الموقف إلى مكان لا أدرى فيه هذا الوجه ..

فين الولد ياولاد ؟ قالوا الولد مسحور

وشرعت أجرى وأتعثر .. وألهث .. ثم أجرى .. أعواد الذرة تلطم وجهى ، وقلبى يخفق ... وتفكيرى كله قد تبدد إلا من الأغنية المشئومة وثعبانين يلتهم كل منهما ذيل الآخر لا أدرى كيف تسربا إلى عقلى الباطن ..

ومن بعيد عاد صوتها يتردد فى إصرار :

ـ (رضا اااااه) !.. (رضا اااااه) !

* * *

وفى الظلام اصطدمت بجسم بشرى ، فأجفلت وشرعت أوجه لكمات خرقاء إلى ما ظننت أنه مقتله .. فسمعت صوتًا مألوفًا يبتهل ويهتف بي :

ـ دكتور (رفعت) !.. هذا أنا .. (عاصم) !

(عاصم) من ؟!.. الآن تذكرت .. دكتور (عاصم) الذى بدأت معه المغامرة .. أثار الكشاف وشرع يهدئ من روعى على حين أخذت أرتجف وأحكى له ما حدث فى كلمات سريعة ..

ـ إذن هى هناك ؟

ـ بالطبع يا أحمق ..

ـ إذن هيا بنا هذه آخر فرصة لنا ..

وشرعنا نجرى إلى المكان الذى رأيتها فيه .. وهناك ـ وعلى ضوء بطاريتنا ـ لم يكن شيء سوى السكون المريع وصوت ضفدع بثق مغازلا أنثاه ..

اين ذهبت تلك الفتاة ؟!..

ـ هل أنت واثق مما رأيت ؟!

ـ بالطبع ..

ـ ولماذا لم تقبض عليها ؟!

احمر وجهى ـ وهو ما لم يره فى الظلام ـ وقلت بمزيج من الخجل والحنق :

ـ ليتك كنت هناك مكانى .. لم تكن هناك فرصة لأى شيء ..

ـ إلى هذا الحد كان المشهد مرعبًا ..؟

ـ مريعا ..

ـ وأين تظنها ذهبت ؟!

ـ إلى المكان الذى منه جاءت بالطبع ..

تفكر حينا ثم تثاءب ، وقال :

ـ على كل حال فإن من رابع المستحيلات أن تجد أحدا بين عيدان الذرة النامية . يبدو أن حفل الليلة قد انتهى .. فلنعد إلى الوحدة ونتناقش ..

أنت فى حاجة لكوب من الشاى ..

ـ نعم ولاريب ..

* * *

ـ والآن دعنا نسترجع ما حدث ..

كانت (عواطف) زوجته تعد لنا الشاى على موقد الكيروسين ، فى حين جلسنا نرتجف ـ أنا و د. (عاصم) ـ على الفراش ... لم أصدق لحظة أننى منذ عشر دقائق واجهت النداهة .. النداهة بعينها ..

شرعت أعيد حكاية القصة ، في حين شرعت (عواطف) تتصبب وتمصمص شفتيها حتى إذا وصلت لجزء المواجهة صرخت بصوتها المبحوح

- يالهوى !.. كفاك هذا فقد اقشعر جلدي !

ضحك د. (عاصم) في طرب ... إن الرجال يحبون أن تفزع النساء .. والنساء الذكيات فقط يعرفن كيف يستغللن هذا .. كأني بخوف النساء العتيد من الفئران مجرد تملق لغرور الرجل ..

قلت في تواضع وأنا أرشف كوب الشاي :

- أنت اقشعررت من مجرد كلمات .. أما أنا فقد عشت الموقف وجها لوجه وسيظل يطاردني حتى أموت ..

قال د. (عاصم) في اهتمام :

- صفها لي ..

هرشت ذقني في تردد . إنني أعرف شكلها تماما لكني لا أستطيع وصفه ... ثم خطرت لي فكرة فتناولت ورقة وقلمًا وشرعت أخطّ شيئًا ما ..

- آه !.. سترسمها ؟

- بالطبع .. فأنا رسام لا بأس به ..

وعلى الورق بدأ الوجه يولد .. العينان الشاخصتان .. الشفتان المزرقتان خصلات الشعر الناعم الأسود متدلية

على الجبين ، ثم العنق الطويل الأبيض ... صورة لا بأس بها ، لكنها لا تشبهها كثيرًا .. فقط مفيدة لمن لم ير تداهة من قبل ..

مددت يدي بالورقة إلى (عاصم) ، فتناولها يتأملها ومطت (عواطف) عنقها الطويل في فضول لترى ما هنالك . أطال (عاصم) النظر إلى الصورة ثم أعادها لي واجمًا ... أعدت تأمل الصورة .. هناك خطأ ما ارتكبته .. فقد نسيت أن أظلل العينين لتكونا حمراوين كعيني التداهة ، ثم إنني لم أرسم الشامة الزرقاء على الخد الأيسر .. لهذا بدت الصورة أكثر بشرية مما كانت عليه تلك الشيطانة حين رأيتها ... مجرد فتاة جميلة أخرى ..

ثنيت الورقة ووضعتها في حافظتي ؛ ونهضت للانصراف .. فلم يحاول أحدهما استبقائي ... قال (عاصم) في شرود :

- وبعد .. هل ستواصل ما بدأناه باكرًا ؟

- طبعًا .. إننا لم نصل لشيء ... والساعة الآن الحادية عشرة مساءً ..

- لو كنت مكانك لأخذت الحذر ..

- ولم ؟

نظر لى نظرة حنونا غريبة من خلف نظارته السميكة ..
وهمس :

ـ لقد عطلت مشروعها لهذه الليلة ، والنداهة لا تترك أبدا من يعترض سبيلها ! والآن فلنشرب كوبا آخر من الشاي قبل أن تنصرف ..!

* * *

٨ ـ النـــداء ..

فى الواحدة صباحا عدت لدارى فخلعت ثيابى وارتميت على فراشى منهكا .. ما أطوله من يوم !!.. كان الصداع يقتلنى والدوار يعصف بى .. وثمة انفصال كامل عن الوجود فى كل كيانى ... ولكن .. الواحدة صباحا ..؟!.. لقد ودعت د. (عاصم) منذ ساعتين .. فهل استغرقت ساعتين فى الوصول لدارى ؟!.. لا أذكر شيئا ولا يهمنى أن أذكر .. كل ما أريده الآن هو أن أنام ..!

ولم أدر متى غلبنى النعاس ..

وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى استيقظت وفمى جاف كالقش وفى ذهنى صورة واحدة ملحة .. ثعبانان يلتهم كل منهما ذيل الآخر .. أين لمحتها ؟

ومتى ؟.. وما معناها ..؟!..

ولم يستمر تساؤلى لأنى غفوت ثانية ..

ـ ....

* * *

على الطاولة جلست ألتهم البيض والفطير الذي أعدته لي أختي (رئيفة) .. وكنت شارد الذهن إلى درجة أثارت قلقها .. شرعت تحدثني في مواضيع عديدة بدت لي بعيدة جدًا ومبتذلة فأغلقت أذني وشرعت أهمهم بنغمات مختلفة توحي بالمتابعة .. كأني أوافقها في الرأي :

- ....

- همم م .. !

- ....

- همهمم م ؟

- ....؟!

- همم م ..

وهنا لمحتها تنظر لي في ضيق ودهشة وتقول :

- إنني أسألك !

لقد أجبتها على سؤالها بهمهمة توحي بأنني أتابعها ..!

وهكذا افتضح شرودي بشكل مخجل لابد أنه أثار حفيظتها ... قلت في ارتباك :

- لامؤاخذة !.. ماذا كنت تقولين ؟!

- أنت لاتسمعني البتة .. أقول لك ماذا ستفعل مع (رضا) ؟!

- وهل هناك جديد ؟!

- نعم .. أرسلت لنا امرأته صباح اليوم تقول إنه ..

- هرب ؟!

- لا .. ليس بعد ... نابته النداهة أمس فمزق قيوده وكاد يهرب ، حتى أنها اضطرت للاستعانة بالجيران كي يمنعوه .. لم تكن تريد أن يعرفوا ..

لم تكن تريد أن يعرفوا ؟.. هذا غريب ..

- وهل هي لم تخبر أحدًا بالموضوع حتى الآن ؟

- بالطبع .. أنت تعرف امرأة أخيك .. إنها لا تحب الشماتة .. إنها تخفي السر وتزعم للجيران وأصدقائه أنه مريض ..

- إذن أنا أول من قصصه ؟!

- طبعًا .. وكنت أقول إن ..

إن شيئًا في هذا الكلام لشديد الأهمية ... إنه يعني .. ولكن يا للتشوش ذهني !

لا أستطيع أن أستخلص شيئًا من هذا الكلام لكنه يوحي لي بفكرة ما هامة جدًا .. وقد نسيت ما هي !..

شفتا أختي لم تزالا تتحركان بكلمات كثيرة .. ألن تكفي عن الكلام أبدًا ؟!.. أنا لا أفهم حرفًا مما تقولين فضلًا عن سماعه أصلًا ... والآن من المحتم أن أزور (رضا) لأطمئن عليه وتلك المرأة الكتوم قوية الشخصية زوجته ..

أنهيت إفطاري وشربت الشاي، ثم إنني غادرت الدار متجهاً إلى بيت (رضا) تعمدت أن أعبر حقل الذرة الذي حدثت فيه أحداث الأمس ... وفي المكان الذي وقفت فيه النداهة توقفت وشرعت أتفحص التراب .. كانت هناك آثار أقدام لحذائي الكاوتشوك الذي ارتديته ليلاً .. وعلى بعد أمتار كانت هناك آثار أخرى غريبة .. حفر دقيقة عميقة في التراب لايمكن أن يرسمها حذاء .. بل هي - إذا أردنا الدقة - أقرب الآثار التي ترسمها أقدام القط حين يزحف في حذر نحو عصفور !..

اتجهت نحو دار (رضا) وقرعت الباب ففتحت لي (نجاة) :

- أنت لم تدر ما حدث أمس وأنت نائم في الحقل ..

هكذا صرخت بمجرد أن رأتني فأوقفتها بعزم رافعاً يدي :

- أعرفه .. ولم أكن نائماً في الحقل ... سامحك الله ..

- إذن أين كنت ؟!

- كنت واقفاً في البرد والعراء أنتظر نداهتك .. ورأيتها .. وسمعتها تتأوه ..

- وماذا فعلت ؟

- لاشيء .. ذهبت أطلب نجدة وحين عدت لم أجدها ..

- يا خيبتك !!

إن هذه المرأة ستحطم أعصابي .. لماذا أتحمل وقاحتها وسخفها دون أن أحطم رأسها ؟!

للأسف أنني مضطر لهذا لأنها هي الضريبة التي أدفعها وسأظل أدفعها كلما أردت العبور إلى عالم أخي .. إنها سيدة الدار .. ولامفر من ذلك !

تأملت وجهها .. خصلات شعرها الأسود الناعم .. عينيها المحملقتين .. إن هذه الملامح تذكرني بشيء ما ... ثم إن شفتيها مشققتان بصورة غير عادية، وكانت تكشف عن عنق طويل أبيض ... لا أريد أن أكون متحاملاً لكن هذه المرأة تشبه النداهة إلى حد لابأس به ..!.. ثم لاتنس - وهذا هو الأهم - تلك الشامة الزرقاء القريبة على خدها الأيسر ... إنها تشبه النداهة لكنها ليست هي .. لايمكن أن تكون هي ..!

- فيم أنت شارد هكذا ؟!

ابتلعت ريقي .. قد تكون مصادفة وقد يكون إيحاء تركته في نفسي أحداث البارحة، وقد يكون العامل كراهيتي لها لكنني لا أتقبل للحظة العبور ولا الحافز الذي يجعلها تترك زوجها وتخرج ليلاً تتنادى عليه من خارج البيت ..! سيكون تكراراً سخيفاً أن تكون كل فتاة أقابلها ذات شخصية شريرة أخرى .. (إيكاترينا) تتنكر في صورة مذءوب في رومانيا و (نجاة) تتنكر في صورة نداهة في مصر ...!

كلا .. لن تؤثر هذه الملاحظة العابرة على تفكيري ... فقط لأحتفظ في ذاكرتي بهذه النقطة ولا أنساها أبدًا : (نجاة) تشبه النداهة إلى حد ما .. لربما أفادتني هذه المعلومة يومًا ما ... ودعتها وانصرفت متجهًا لداري .. على أنني توجهت إلى الوحدة الصحية لأرى شيئًا ما في مكتب المواليد ثم عدت لداري بعدها دون أن أقابل (عاصم) ..

* * *

بدأ المرضى يتوافدون إلى دارنا .. فعدت أمارس عملي في الغرفة الجانبية إياها ، وكنت شارد الذهن مما أثر على سلامة تشخيصي ، ولأكثر من مرة ترتد القلم في يدي محاولًا تذكر اسم دواء ما .. ونسيت كثيرًا من الوجوه التي رأيتها أمس .. الخلاصة أن أدائي كان مثيرًا للشفقة إلى حد لا يوصف ..

وحين جاء العصر صعدت لغرفتي وتناولت لقمة أعدتها لي أمي للغداء .. ثم تمددت في فراشي لأستريح استعدادًا للسهرة الخاصة التي تنتظرني هذه الليلة .. وسرعان ما غلبني النعاس ، فنمت نومًا هادئًا لا أحلام فيه ..

* * *

صحوت في الظلام الدامس .. ما الوقت الآن ؟!.. نظرت لساعتي الفوسفورية فوجدت عقاربها تشير للعاشرة مساء .. لقد خانني التعب وتأخرت ساعتين عن موعدي في الوحدة مع د. (عاصم) ... يجب أن أرتدي ثيابي وأهرع إليه قبل أن يُجنّ ..

ارتديت (عدة النداهة) التي وصفتها لك .. المسدس والمصحف والمسامير والحذاء الثقيل .. ثم اتجهت للباب كي أخرج ، وهنا سمعت صوتًا غريبًا .. صوتًا قادمًا من ناحية الساقية المجاورة لبيتنا .. صوتًا طويلًا ممطوطًا كالنحيب .. صوتًا أعرفه جيدًا يقول :

ـ (رفعاااات) !.. (رفعاااات) !

إنها تناديني أنا .. أنا بالذات !.. لقد جاءت لحظتي ، والآن لن أبحث عنها ولن يكون هناك المزيد من الانتظار الليلي الممل ... كل ما عليّ هو أن أخرج من البيت وسوف تكون هناك بانتظاري ..

ـ (رفعاااات) !

وهنا انفتح الباب ولمحت أمي وأختي و(طلعت) زوج (رئيفة) يدخلون الحجرة وثمة شمعة مضاءة في يد أمي .. ونظرة هلع في عينيها الذابلتين :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم !.. إنها تناديك يا بني ؟!..

ثم لمحت استعدادي للخروج ... فصاحت :

ـ لا .. لن تذهب !..

قلت في غلظة على الرغم مني :

- اسمعي يا أمي .. لا دخل لأحد بهذا .. إنها مشكلتي وسأحلها بنفسي ..

ضربت على صدرها في لوعة :

- الحقوني أيها الناس ! .. هل أفقد الولد وأخاه ؟!

بينما الصوت يتردد في إصرار وبرود :

- (رفعاااات) !

اتجهت للباب .. إن شيئا ما في هذا النداء لا يقاوم أبدا .. ثم مشهد وجهها .. لابد لي أن أرى هذا الوجه مرة أخرى ... كم هو فاتن ! .. كم هو غريب ! .. كم هو شيق ! .. لن يستطيع هؤلاء منعي بدعوى الحنان الأسري ..

أمسك (طلعت) ذراعي بيده القوية - كالمتجلة - وقال بخشونة :

- (رفعت) .. لا أريد أن أوذيك .. !

قلت في حنق محاولا انتزاع ذراعي وقد سقطت نظارتي على الأرض :

- لا شأن لك يا (طلعت) بهذا .. دعني ..

فازدادت قبضته ثباتا ... وهنا دوى الصوت مرة أخرى :

- (رفعاااات) !



أمسك (طلعت) ذراعي بيده القوية - كالمتجلة - وقال بخشونة

- (رفعت) .. لا أريد أن أوذيك ! ..

كلا ..!.. لن أضيع هذه الفرصة !.. حاولت التملص فى هياج فكانت فرصة رائعة لـ (طلعت) كى يستعرض قواه .. لا أذكر سوى معركة عنيفة كنت فيها الطرف الواهى جدًا ..

وكانت أمى تولول ، وأختى تلطم خديها بينما طفلها يمسك ذيل ثوبها وينشج ... (طلعت) يوجه لى اللكمات ثم يلقى بى على الفراش الخشبى العتيق .. أختى تناوله حبلًا من الليف يعقده حول كاحلى وهو يلهث .. ثم يلفه حول معصمى ، قاومت .. صرخت .. تسلخ لحمى لكن القيد كان محكمًا .. ثم استسلمت منهكًا ... الصوت لم ينفك ينادى :

- (رفعاااات) !

أطلقت أختى سبة .. وهتفت :

- ألن تخرسى يا بنت الـ..... ؟!

ثم شرعت تقول وهى تبكى وقد اكتسب كلامها نغمة محببة للنفس :

- لولا (رضا) .. ثم هو ذا أخى (رفعت) زينة الرجال .. ليتك لم تأت من مصر ..

ليتك لم تأت ، ليتك تركتنا فى بؤسنا ..

لماذا تبكى هذه المرة ؟!.. أنا لا أرى مصيبة ما فى هذا الذى يحدث .. كل ما هناك أن هذا القيد يثير حفيظتى وأننى

يجب أن أتخلص منه بأسرع ما يمكن .. هناك تقف حبيبتى الرقيقة فى ثوبها الأسود تنتظرنى وتناديني .. فعلام لا ألبى نداءها ؟!

* * *

لم أدر بشىء مما حدث فى الأيام التالية ..

هلوسة متواصلة مضطربة تداخل فيها د. (ريتشارد) مع (إستيان) والمذعور مع مومياء (دراكيولا) ومشهد وفاة (إيكاترينا) و د. (عاصم) ووجه النداهة ووجه يهوذا والثعبانين اللذين يلتهم كل منهما ذيل الآخر ..

فيما بعد حكت لى (رئيفة) كل شىء ..

كنت ذاهلًا عن العالم أرمقه بعينين مفتوحتين لا تريان ، ولم أكن آكل لهذا كانوا يطعموننى قسرًا كالبط ... وقد أحرقت أمى أطنانًا من البخور جوار فراشى وقرأت سورة (يس) مئات المرات ..

أما (رئيفة) فقد أحضرت مشعوذًا - نصابًا كالعادة - كى يحاول فك اللعنة التى تكبلنى .. وبالطبع أحرق مزيدًا من البخور وردد عشرات الرقى وطلبت مئات الطلبات ثم انصرف زاعمًا أن هناك جنيًا حانقًا علىّ لأنى لم أجلب له ما أراد من هدايا ..

وكان (طلعت) أكثر مادية في تفكيره .. إذ ذهب للقرية وأحضر د. (عاصم) طبيب الوحدة كي يراني .. وقد أبدى هذا الأخير أسفه ولوعته . وقال إنه خمن أن هذا حدث حين تأخرت عن موعدي معه ، وحكى لهم قصة لقائي مع النداهة .. ثم إنه أعطاني حقنة مهدئة وعرض خدماته في أي وقت ونصحهم بفك القيود من حين لآخر والسماح لي بالتقلب في الفراش حتى لا أصاب بقرحة فراش ... وأخذ جنيها ثمن الكشف برغم أن هذا ممنوع حسب قوانين النقابة ..

يا له من نصاب !..

وفي كل ليلة – حكت أختي – كانت النداهة تناديني من جوار الساقية ... فكنت أتململ وأتقلب وأحاول النهوض لكن القيود كانت أقوى مني ..

وفي ذات مرة أصر (طلعت) على الخروج ليرى هذه الشيطانة لكن أمي وأختي توسلتا إليه أن يبقى .. فهما ليستا على استعداد لفقد آخر رجل في الأسرة .. وقد اضطرت أختي لأن تقضم يده كي يكبح فضوله القاتل ، فرضخ لرغبتها ..

كم من الوقت استمر بي هذا الحال ؟!..

أسبوعين ..!

وكيف انتهى ؟!.. إن لذلك قصة صغيرة سأحكيها لكم ، ولكن لا تتعجلوني ..

* * *

وصل خطاب باسمي ، تسلمه (طلعت) زوج أختي ... ولم ير فائدة ما من إطلاعي عليه لأنني قد انفصلت عن العالم تمامًا .. لهذا نسيه تمامًا في جيب جلبابه .. ثم إنه في إحدى الليالي فكر في أن يتلوه بجانب فراشي لعل شيئًا فيه يثير انتباهي أو يكون لغزًا ذا بال يمكنه هو التصرف فيه ..

وعلى ضوء مصباح الجاز شرع يقرأ .. كان الخطاب من تلميذي د. (علاء عبد الصمد) يتحدث فيه عن عينة الدم التي أخذها ليحللها في معمله بالقاهرة :

– عزيزي د. (رفعت) :

لم أستطع الحضور بنفسي كما أنني لم أستطع الاتصال تليفونيًا لأن القرية لا يوجد بها تليفون ، لهذا أرسل هذا الخطاب وفي تقديري أنه لا يستغرق سوى ثلاثة أيام وبالتالي لن يسبب التأخير مشكلة ..

لقد قمت بإجراء التحاليل التي طلبتها .. وكما توقعت أنت لم أجد أي دليل على مرض السكر أو الكلى أو الفشل الكبدي أو تغير حموضة الدم .. كما أن نسب الكهارل(*) لا بأس بها ... ومزارع البكتريا سلبية كلها ..

(*) الكهارل أو الإلكتروليتات هي أيونات الدم الموجبة والسالبة ..

باختصار .. لاشيء على الإطلاق ..

ثم قمت بإجراء تحليل كروماتوجرافي في كلية الصيدلة بحثًا عن سموم معينة وبعد بحث مدقق مرهق وجدنا في العينة نسبة ضئيلة جدًا ولكنها محسوسة من مادة الباربيتورات ..

كان (طلعت) يقرأ بلغته المضعضعة الواهية . وقد عانى الأمرين في نطق كلمات مثل (كهارل) .. (كروماتوجرافي) ... (باربيتورات) لكن الكلمة الأخيرة وصلتني كاملة سليمة .. واستقرت في وعيي لتحدث هزة كاسحة .. ومن ثم رددتها خلفه - هكذا قال - وكانت أول كلمة أقولها منذ أسبوعين مما أحدث له هزة فرح عارمة .. وشرع يكبر والدموع تغطي عينيه :

- وا (رفعت) !.. لقد نطقت أيها الرجل الطيب !.. نطقت !

هأنذا .. حي أرزق .. لا أدري ما حدث لي ولا يعنيني أن أعرف .. فقط أريد هذا الخطاب حالًا .. يجب أن أعرف ما به ... ولكن .. إنني مقيد للفراش كالذبيحة .. من فعل هذا ؟.. (طلعت) ؟!.. ولماذا ؟!.. أذكر شيئًا عن الداهية وعن تلك الليلة لكنه مشوش تمامًا .. لابد أنهم قيدوني - هؤلاء الحمقى - لكيلا ألحق بالآخرين .. قلت في صوت متحشرج :

- (طلعت) ؟.. أنا بخير .. أرجوك أن تفك قيودي ..

نظر لي في حيرة ولم يرد ..

- (طلعت) !.. دعني أنهض وسأخبرك بكل شيء .. لقد زالت الغيبوبة ..!

وجهه مغطى بالظلال ولايريد أن يرد . من حقه ألا يصدق لكن كيف أقنعه ؟

- (طلعت) !.. صدقني .. أنا لا أكذب ..

نهض في حزم ووضع الخطاب في جيبه .. وقال لي بجفاء واضح :

- استعذ بالله يا دكتور ولا تلبِّ نداء الشيطان .

- ولكن ..

- إنها تلك الملعونة تحاول أن تدعوك إليها .. لكنك لن تخدعني ..!

وحمل مصباح الكيروسين في يده متجهًا للباب ، وفتحه .. وقبل أن يخرج قال مكررًا في اشمئزاز كأنه يبصق ..

- لن تخدعني !

☆ ☆ ☆

٩ - أخيرًا فهمت !

في ظلال الليل ومع الهدوء الإجباري بدأ تفكيري ينشط ويصطرع حتى وصل ذروته .. وبدأت أحلل الحقائق وأنقدها .. كل كلمة وكل صورة وكل موقف كان له دورٌ ما في هذه القصة ..

بدأت الصورة النهائية تكتمل لكن ثغرات عدة كانت تعلوها .. المهم الآن أن يطلقوا سراحي ولو قليلًا لأني بحاجة إلى الحركة ..

* * *

في الصباح جاءت (رئيفة) بالإفطار ؛ وجلست جواري على السرير وشرعت تدس لقيمات مغموسة بالعسل في فمي . اللعنة !.. أنا لا أحب العسل إن كل ما مررت به من تجارب مروعة لا يساوي عندي أن آكل العسل وأنا مقيد بالحبال ! لهذا بصقت ما في فمي جعلها تجفل .. وصحت :

- (رئيفة) .. أنا بخير .. لقد شفيت ..

- يارب !

- لقد استجاب الله بالفعل لدعائك .. ألم تلاحظي أنني أتكلم ؟

- لقد أخبرني (طلعت) .. وأخبرني أيضًا أن هذه خدعة من النداهة ..!

يا للغباء !.. من حسن حظها بالفعل أنني مقيد .. قلت لي غيظ :

- ومتى ستقولين إنني شفيت إذن ؟!

- حين .. حين تشفى !

ماذا أفعل مع هذه الحمقاء العزيزة ؟!.. إن ذهولي هو دليل مرضي - كما تعتقد - إلا أن عودتي للواقع هي دليل أكثر خطورة على نفس المرض ..! أخذت نفسًا عميقًا وقررت أن أسايسها برفق :

- (رئيفة) ..

- نعم ..

- إن النداهة تنادي ليلًا .. أليس كذلك ..؟

- بلى ..

- ونحن الآن في الصباح .. أي أن رغبتي في التحرر لا غبار عليها ..

- طبعًا ..

- إذن لماذا لاتحضرين سكين المطبخ وتقطعين قيودي ؟!

قالت وهي تتملم فتات الفطير المتساقط على صدري وذقني ..

- إن (طلعت) قد حلف علي بالطلاق لو أنني فككت قيودك ، هو لا يريد سوى مصلحتك ..

اللعنة !.. ها هي ذي الأمور تأخذ طابعًا متأزمًا لا مفر منه .. لو حررتني فقد فقدت زوجها وأسرتها .. قلت في حنق :

– إذن سأقضي حياتي هكذا ؟.. حتى إذا شفيت من نداء النداهة ؟

نظرت لي في حسرة وهمست :

– إن أحدًا لم يشف من نداء النداهة أبدًا .. ولهذا نحن واثقون أنك لم تشف .. هذا هو كل شيء !

آه .. يا للمنطق المحكم الغريب ..! أمامي الآن حلان .. إما أن أقضي نهاري في محاولات خرقاء لفك القيود آسفًا على أنني لم أكن هوديني(*) وإما أن أخبرها بكل استنتاجاتي أملاً أن تتولى هي مهمة كشف السرّ .. لكنها لن تفهم حرفًا مما سأقوله لها ولن تصدقه ..

في هذه اللحظة دخلت أمي الحجرة هاتفة في مرح :

– صباح الخير يا بني ... لقد جاء حبيبك ..

– حبيبي ؟!

– نعم .. د . (عاصم) وزوجته للاطمئنان عليك .. قل له كل ما تريد ...

(*) (هوديني) ساحر عالمي شهير اشتهر بقدرته على فك القيود والهروب من الأقفال مهما كانت محكمة .

– أقول له ما أريد ؟!.. إن الإغراء شديد بالفعل ..

* * *

دخل د . (عاصم) بصلعته المميزة الغرفة حاملاً حقيبة الفحص ووراءه زوجته (عواطف) وقد بدت في أجمل حالاتها في ضوء النهار .. وما إن رآني حتى اتسع ثغره بابتسامة بلهاء وصاح :

– الحمد لله على سلامتك أيها الزميل !.. أخبرتني (الحاجة) أنك قد تكلمت بالأمس ..

كانت نظراتي مثبتة على (عواطف) .. على قلادتها بالذات . وقد لاحظت نظرتي فأغلقت زر قميصها العلوي في شيء من الحرج ، وغمغمت :

– حمدًا لله على السلامة !

التفت د . (عاصم) إلى أمي وقال في مرح :

– نريد الشاي يا ست الكل ..

ثم التفت إلي ، وجلس على حافة الفراش قائلاً :

– لقد تركت الوحدة في ساعة الذروة من أجلك ..

– بارك الله فيك .. اجلسي يا مدام (عواطف) ..

جرّت (عواطف) كرسيًا من الجريد وجلست عليه جوار الفراش وهي تتحاشى النظر لوجهي في إصرار ... غريب هذا الاجتماع العائلي بين طبيب سعيد مثله وزوجته مع



وقد لاحظت نظرتى فأغلقت زر قميصها العلوى فى شيء من الحرج ،
وتمتمت : — حمدًا لله على السلامة ..

رجل مفقود فى الفراش وقد تمت ذقنه المشعثة فبدا كالسجناء ... دعك من أننى لم أكن قد استحممت منذ أسبوعين مما جعل رائحتى ككهوف الضبع ..

أحضرت أمى الشاى فنهضت (عواطف) لتأخذ منها الصينية ، ووضعتها على الأرض الترابية جوار الفراش ، فى حين قال د. (عاصم) :

- والآن هلا تركتنا بعض الوقت يا حاجة ؟!.. أغلقى الباب خلفك لأننا سنناقش مستقبل ابنك ولماذا لم يتزوج ؟

ضحكت أمى فى مرح ودعت له ولزوجته ثم فعلت كما قال ..

- والآن هات ما عندك ..
- ومن قال لك إن هناك ما عندى ؟!
- عيناك ..
- ليس قبل أن تلك قهوتى ..
- أما هذا فلا .. لقد وعدت هاتين الياسمتين .. ولحسن الحظ أنهم لم يربطوا لسانك بحبل من الليف هو الآخر ..

أخذت نفسًا عميقًا ونظرت لسقف الحجرة ثم قلت :

- حسن .. سأتحدث .. ولكن لا تقاطعنى ... ضع نظارتى على أنفى على الأقل ..

لك هذا ..

- في البدء كان اللغز غامضًا كالموت نفسه ... ولم يكن هناك بصيص من هدى ، لهذا أرسلت عينة من دم مريض لتحليلها في القاهرة بحثًا عن شيء ما ... وأمس وصلني التقرير .. يقول إن هناك نسبة ما لا تذكر من مادة الباربيتيورات ..

- وماذا في ذلك ؟.. ألم تعطه أنت حقنة فينوباربيتون ؟!

- كلا .. لقد أعطيت هذا المريض حقنة فينوباربيتون بعد وليس قبل التحليل ..

أي أنه كان يتعاطى - أو يُعطى - هذا العقار في أثناء مرضه ..

والآن هل تعلم من هو هذا المريض ؟!.. إنه (رضا إسماعيل) أخي ..

- وهل .. هل أخفيت عني ذلك كل هذه الفترة ؟!

- أنا نفسي لم أر مبررًا لذلك ، لكني - حين أعيد التفكير - أرى أنه أحكم تصرف فعلته في حياتي .. والآن دعنا نسترجع الأحداث .. في كراستك الصغيرة التي أريتني إياها في الوحدة حين زرتك أول مرة ذكرت اسم (رضا إسماعيل) وأنه فيمن تلتهم النداهة .. كيف أمكنك معرفة ذلك في حين أن زوجة أخي لم تخبر أحدًا في القرية بهذا الموضوع ولم نجلب له طبيبًا غيري ..؟!

إنك قيدت اسمه في الكراسة دون أن يخبرك به أحد .. فما السبب ؟!

قال في ارتباك :

- ربما هي كلمة سمعتها هنا أو هناك .. لابد أن الخبر تسرّب ..

قلت في حزم :

- ألم أقل لك ألا تقاطعني ؟.. ثم إنني قابلت النداهة المزعومة ... وكان الموقف مريعًا لكني احتفظت في ذهني بملامحها .. واستطعت أن أرسمها لكني نسيت بعض التفاصيل التي كانت تجعلها متوحشة ، مما جعلها أقرب لصورة أنثى عادية .. حين رأيت أنت و (عواطف) هذه الصورة أصابكما الوجوم .. لماذا ؟!.. لأن الصورة بدت أقرب إلى (عواطف) منها للنداهة ... لكني لم أفطن لهذا الشبه وقتها وخيل لي أن هناك تشابهًا شديدًا مع (نجاة) زوجة أخي .. إن النداهة التي رأيتها تملك شامة زرقاء على خدها وهذه يسهل رسمها .. أما العينان الحمراوان فيمكن لعدستين ملتصقتين ملونتين إعطاء الإيحاء بهما .. أما اللون الفسفوري المشع ليلًا فهو شديد السهولة . إن الماكياج الذي كان على وجه النداهة كان متقنًا وكان بارعًا لكن نسيان الشامة يفسد كل شيء ..

أضف إلى هذا أن الأنثى هي الأطفش .. لم تنس (عواطف) أن تضع قلادتها الذهبية الجميلة - التي ترتديها الآن - على عنقها وهي تمثل دور النداهة . لم يتسع عقلي لاستيعاب شكل القلادة لهذا ظلت مجرد صورة في ذاكرتي لثعبانين يلتهم كل منهما ذيل الآخر لا أذكر متى وأين رأيتها ... ومن عادات (عواطف) أن تضع يدها على جيدها في أثناء الكلام لهذا لم ألحظ أنها ترتدي هذه القلادة إلا الآن ..!

والنقطة الأخيرة هي صوت (عواطف) المبحوح .. إن سر هذه البحة هو كل هذا المجهود الذي تبذله حنجرتها في النداء على الفلاحين ليلاً ... هذا الصوت الرهيب غير البشري لابد وأنه أتلف أحبالها الصوتية ..

ويوم زرتك في الوحدة أول مرة لم ألق زوجتك .. قلت إنها كانت في ولادة بالقرية لكن هذا غير صحيح .. لقد تفقدت سجل مواليد القرية يومها فلم يكن هناك أي مولود ، كانت - ببساطة - تنادي (رضا) أخي وقتها ..!

قال د. (عاصم) وقد ارتسم شبح ابتسامته على ثغره :

- وماذا عن الفلاحين الذين رأوها تمشي فوق الماء ، أو لا تترك ظلاً ؟

- لقد كاد قلبي يتوقف رعبًا وأنا لا أؤمن بها ... فهل تتوقع من فلاح أو طفل يراها بهذا الماكياج المريع ألا يفقد صوابه ؟!.. لا يمكن أن يكون كلامه متماسكًا .. إنه سيراها عندئذ كما يظن أنها ستكون وليس كما هي في الواقع ..، وعلى كل حال لا أظنكما عاجزين عن تلفيق خدعة بصرية كهذه !

قال د. (عاصم) وهو يتبادل النظرات مع (عواطف) :

ولكن الحالة أصابتك أنت نفسك بكل تفاصيلها المرعبة .. هل كنت أنت أيضًا تمثل معنا ..؟!

تنهدت في يأس وقلت :

- إن هذه هي الثغرة في قصتي ... لكن تذكر أن المرض هاجمني بعدما كنت عندكم وبعدما شربت الشاي الذي قدمته لي زوجتك ... ماذا كان في الكوب ؟..

والأهم هو أنني ودعتك في الحادية عشر مساءً ووصلت داري في الواحدة صباحًا ..

وليس لدي أدنى تفسير لما فعلته أو حدث لي في هاتين الساعتين ..

إنني كنت ضحية معالجة ما لا أفهمها لكنها تؤدي لجنون ذهولي دائم .. وأنت وزوجتك هما من يملكان التفسير ..

نظر لي د. (عاصم) في ثبات وقال :

- والآن - بفرض صحة كلامك - ماذا تريد ؟

- النصف الآخر من الحقيقة وهو لماذا فعلتما ذلك ؟

أشعل د. (عاصم) سيجارة .. ونظر نظرة ذات معنى إلى (عواطف) فنهضت للحقيبة وناولته شيئًا ما منها .. محقنًا زجاجيًا مليئًا بسائل أبيض ... وقال لي :

- هناك حقيقة واحدة يا زميل !.. لقد كنت قوي الملاحظة لكنك ساذج .. ساذج بشكل مرعب ... وأحمق أيضًا ..

أخيرًا ..! لقد اعترف - لأول مرة - بأن كلامي صحيح .. إلا أنه أردف :

- عندما يواجه المرء أعداءه بحقائق كهذه يجب عليه أن يكون في موقف قوة لا أن يقول كلامه وهو منعزل ومقيد في الفراش .. والآن أنت تحت رحمتنا تمامًا ..! كان يجب أن تنتظر حتى تتحرر .. والآن ..

- حقنة هواء في عروقي ؟!

- لا .. إنها طريقة قذرة ... أولًا سأعطيك جرعة من الباربيتيورات لتنام ثم نفك قيودك جزئيًا بشكل لن يلاحظه أحد . وفي المساء سينام الجميع عندئذ ستلبي نداء النافذة .. وستحضر لنا إلى حيث تعرف مصير من سبقوك ..!

فتحت فمي لأصرخ إلا أن (عواطف) كوّمت الملاءة وحشرتها في فمي حشرًا حتى تكتم صوتي ، في حين شرع (عاصم) يعرّي ذراعي .. وفي تؤدة أفرغ الحقنة في وريدي .. ثم إنه نهض لاهثًا :

- عندما تعود أمك وأختك للغرفة ستعرفان أن مناقشتنا قد أنهكتك .. وأنك ستنام طيلة اليوم ..

ثم أعاد محقنه للحقيبة .. وضحك :

- أراك هذا المساء أيها الزميل !

* * *

١٠ ـ المعمـــل ..

استغرقت بعض الوقت كي أدرك أين أنا ومن أنا ، وحين فتحت عيني لم يكن ما رأيته هو حجرتي الفقيرة الأنيقة بل كانت غرفة واسعة تزحف الرطوبة والطحالب والعفن على جدرانها ..

كنت مقيدًا إلى الحائط بجنزيرين صدئين في وضع المصلوب ... وبجواري كان جردل فارغ وغلاية حقن معدنية موضوعة فوق موقد جاز عتيق ... وكانت رائحة العقاقير تملأ الجو ... والأغرب هو أنني كنت أرتدي البيجامة وحافيًا ..

ثم عرفت ذلك الشيء الذي يمنعني من الكلام .. شريط عريض من البلاستر ملصق فوق فمي . وكانت قدماي حرتين لكن لم يكن شيء في مجال حركتهما ..

رفعت وجهي في هدوء لأرى ما هناك ... كنت قد فقدت نظارتي لكنني لم أكن قصير النظر إلى هذا الحد الذي يمنعني من تبين تلك الأجساد الآدمية نصف العارية المقيدة إلى الجدران من حولي ..

كانت هناك أربعة أجساد لرجال في العقد الثاني أو الثالث من العمر وأحدهم أقرب لسن المراهقة . كلهم

مقيدون ـ بنفس الكيفية التي أنا مقيد بها ـ للحائط .. وعلى فم اثنين منهما قطع بلاستر لاصقة ، على أنه لم يكن هناك كثير حاجة لذلك لأنهم كانوا جميعًا في حالة ذهول تام ..

ولكن .. من هو هذا الرجل ضخم الجثة الذي أغمض عينيه وتدلى رأسه على صدره ؟!.. إنه هو ..!.. (رضا) أخي !.. هو بعينيه ..

الآن تذكــرت قصة د . (عاصم) ، والحقنــة التـــي أخذتها ... والمواجهة ... ، و (عواطف) و .... يبدو أنه نفذ تهديده حرفيًا وهو يعرف ذلك الذي يفعله جيدًا .. والآن أنا أسيره ، ويبدو أنه لا مفر لي من قبضته .. كل ما علي هو أن أنتظر لأرى ..

أما باقي الغرفة فكان يحوي منضدة عليها أنابيب اختبار عدة .. وموقد (بنزن) وميكروسكوب ضوئي متهالك .. وآلة طرد مركزي ..

صوت باب ينفتح ببطء ..

وعلى بصيص الضوء الخافت القادم من النافذة رأيته .. د . (عاصم) وقد ارتدى معطفًا ملوثًا بالدماء ومن خلفه (عواطف) زوجته ... وكان يمسك صينية عليها قوارير عقاقير مختلفة الأنواع ... وفي ثقة انتزع قطعة البلاستر من على فمي ..

- صباح الخير أيها الزميل !

هتف بي وهو يضحك متشفيا .. ووضع ما في يده على المنضدة ..

- كيف حالك ؟

- أفضل مما تتوقع أيها الجزار !..

- يبدو أن نوم الليلة لم ينجح في تهذيب أخلاقك .. لقد فككنا قيودك بشكل لم يلاحظه أحد .. وحين جاء الليل نادتك النداهة فنهضت من فراشك ووثبت من النافذة وجئت إلى منتجعنا .. أليس هذا رائعا ؟!

ثم إنه أمسك بمعصم زوجته وأشار لي :

- تخيلي هذا يا (عواطف) .. أستاذ أمراض الدم العظيم هو حيوان تجارب في معملي ..! دعونا نعرفه على زملائه في الأسر ..

ثم مضى إلى الحائط .. إلى الرجال المكبلين بالسلاسل ، وشرع يشير لهم واحدا واحدا :

- هذا الفتى الوسيم هو (إبراهيم السقا) .. شاب في الثالثة عشرة من عمره ، قلبه مليء بالعواطف وذهنه مليء بالطموحات .. إلى أن جاءت النداهة ..

وتحرك إلى رجل أصلع ضخم الجثة ينظر لنا نظرة خاوية خرساء .

- وهذا الأخ هو (الزغبي فرحات) .. أول ضحاياي .. وهو رب أسرة ورجل ورع شديد الرزانة ..

ثم تحرك إلى شاب كث الشارب تدلى رأسه على كتفه ..

- وهذا (سعيد جابر) .. عامل البناء الشاب الذي ضرب زوجته كي يلحق بالنداهة .. أما هذا ..

وتوقف عند أخي ..

- فهو (رضا إسماعيل)، شقيق الدكتور (رفعت) .. لقد ضممته للمجموعة أمس فقط بعد أن أخذتك أنت الآخر .. والآن تصور مشاعر أمكما التي فقدت ولديها الراشدين في ليلة واحدة !!

ثم أشعل سيجارة ، كان يعرف كم هو سمج ويستمتع بذلك ، لقد وجد أقصى متع الحياة في أن يكون وغدا ..

- والآن نأتي لموضوعنا الذي أثرته أنت أمس .. ما هو هدفي من كل هذا ؟.. دعني أخبرك بسر صغير يا د. (رفعت) .. إنني عبقري !.. أنت لم تلحظ هذا بالطبع لأن العباقرة لا يمشون برأس متضخم كالذي تراه في قصص الخيال العلمي .. لكني أؤكد لك أنني عبقري ..

وما الذي نلته من ذلك ؟!.. لا شيء .. سلسلة طويلة من الإحباطات .. لم أوفق إلى الالتحاق بسلك الجامعة ونفيت إلى هذه القرية القذرة التي لا تناسب أحلامي ..

وحتى فى الحب ..

وارتجفت شفتاه قليلاً وهو يردف :

- حتى هنا لم أوفق ... كان رأسى الأصلع ونظارتى السميكة يعوقاننى عن الحصول على الفتيات اللواتى أرغب فى أن يشاركن حياتى . كل شىء فى الحياة كان يرغمنى على أن أكون ما أرادوه لى .. مجرد فأر أرياف منزو منعزل وفقير .. وحين أموت لن يذكرنى أحد ، ولن يبكى على أحد ..

ونفث دخان سيجارته فى الهواء .. وأردف :

- وهكذا .. قررت أن أنتقم ... إننى أعرف أن أسطورة النداهة قديمة فى هذا البلد ، لهذا تزوجت [عواطف] .. وبدأت فى تحويلها إلى نداهة حقيقية .. أنت لا تتصور عبقريتى فى الماكياج ... ولكن .. إنك رأيتها فعلا وأصابك الذعر هل تنكر ؟

- لم أنكر لحظة ..

- كنت أختار ضحيتى من زوار الوحدة الصحية ، وكنت أنفرد به فأحقنه بجرعة صغيرة جدا من [بنتوثال الصوديوم] .. إنهم يسمونه مصل الحقيقة لأنه يضعف الإرادة ... وهكذا أبدأ نوعا خاصا جدا من التنويم المغناطيسى تحت تأثير هذا الدواء ... وأقنعه أنه يحب

النداهة .. وأن عليه أن يلبى نداءها حين يسمعه فى الليل .. وأن يظل صائمًا لا يأكل ولا يشرب فى انتظار النداء ..

وفى الليل ترتدى [عواطف] ثياب النداهة الفسفورية وتقف عند بيت الضحية وتبدأ فى النداء باسمه ... أحيانا كان يلبى وأحيانا كان أهله يحكمون الحصار حوله ... لكنها - مهما طالت المدة - كانت واثقة أنها آمنة وأن أحدا لن يجرؤ أبدا على الخروج لمضايقتها ... أضف لهذا أننى - أو عامل الوحدة - كنا دائما على مقربة منها على استعداد للتدخل إذا حدث شىء ..

وكنت أزور الضحية صباحا فأعطيه جرعة صغيرة [منشطة] من الباربيتيورات ليظل وعيه فى حالة السبات ، إننى الوحيد فى القرية الذى له الحق فى إعطاء حقن لا يعرف نوعيتها أحد للمرضى ..

ثم تأتى الليلة الموعودة ..

الليلة التى يلحق فيها المريض بالنداهة .. عندئذ أبادر أنا أو عامل الوحدة إلى تخديره ونقله إلى هنا .. أى إلى سكن الممرضات الخالى بالوحدة والذى لا يصعد إليه أحد ولا يجرؤ أحد على تفتيشه ..

- ولماذا لاتخطف من تريد مباشرة وتنتهي ؟!

- الفن ..!

قالها بلهجة من يقرر حقيقة لا غبار عليها ..

- الفن يا صديقي .. الفن ... يجب أن تكتمل جوانب الأسطورة وتتسق مع بعضها .. ألم أقل لك إنني عبقري ؟!..

- وما جدوى كل هذا ؟.. وما فائدة جمع الفلاحين كالفئران ؟؟

ضحك في سرور .. وهتف :

- هذا هو بيت القصيد .. إن لهذا شطرين .. الشطر الأول هو استمتاعي الخاص بإحياء قصة النداهة وإفزاع هؤلاء الناس . والشطر الثاني هو حاجتي إلى حيوانات تجارب بشرية لإجراء نوع خاص جدًا من الأبحاث .. أبحاث هي وليدة قراءاتي وعبقريتي . أبحاث ستؤدي إلى صنع الإنسان الأعظم .. السوبرمان ..

قلت له في سخرية :

- لهذا وجدت في حجرتك كتب (نيتشه) وكفاحي (لهتلر) وكل هذه الروايات عن الخيال العلمي ... أنت تعتنق إذن هذه الأفكار النازية المقبولة ..!

اعتصر سيجارته بين أسنانه وغمغم :

- ليست أفكارًا مقبولة ... إنها رؤيا خارقة لا يفهمها أمثالك ... أنت عالم حقًا ولديك شهادات علمية لا أعرف حتى كيف أقرأ أسماءها لكنك مجرد صرصور أخر يحرك شواربه في جشع بحثًا عن المادة ..

ويصنق في اشمئزاز :

- صرصور ...!

تجاهلت إهانته التي لا مبرر لها أبدًا . وسألته :

- لدي خمسة أسئلة أرجو أن تجيب عنها ... أنا أعرف أنك متلهف على بدء تجاربك علىّ لكنني لا أريد أن أموت أو أجن وأنا لم أفهم بعد ..

- سل ما تريد ..

- السؤال الأول هو : لماذا جعلتموني أرى النداهة في تلك الليلة ؟

ماذا كان سيكون تصرفكم لو أنني هاجمتها ؟!

قال وهو يهرش صلعته :

- كان هناك احتمالان .. الاحتمال الأول - وهو الأفضل - كان أن يصيبك الهلع وتفر وتزداد إيمانًا بوجود النداهة وهو ما حدث تقريبًا . أما الاحتمال الثاني فكان أنك قد تهاجمها ، وعندئذ كنا سنثب عليك أنا و (صلاح) عامل الوحدة لنحقنك ببنتوثال الصوديوم ثم تبدأ معك قصة النداء الغامض ..

أنت تلقت الاحتمال الأول .. إلا أنك اقتربت جدًا من الحقيقة حين رسمت وجه النداهة - أو (عواطف) - بهذه الدقة لهذا آثرنا أن نبدأ معالجتك فورًا .. نمت لك (عواطف) مخدرًا في الشاي .. ومارست أنا تنويمك مغناطيسيًا بمعونة بنتوثال الصوديوم .. وحين عدت لداري - بعد ساعتين - كنت قد صرت مسحورًا آخر ينتظر النداء ..

هززت رأسي علامة على الفهم .. ثم قلت :

- السؤال الثاني : هل لك علاقة باختفاء (عبد الرازق) ؟.. الفتى الذي قلت أنا إنه مسحور ؟

- بالطبع لا .. لقد فر الفتى لأنه مصاب بمرض الكلب وقد وجدوا جثته في (الرياح) منذ ثلاثة أيام . لقد أصابته نوبة هياجية جعلته يفر ويرمي بنفسه هناك ، وطبعًا لم يجدوه إلا بعد عشرة أيام ... إنني بريء من دمه ..

- السؤال الثالث : هل حقًا لم تر أخي (رضا) في بيته بعد إصابته بمرض النداهة ؟.. إذن كيف وجدوا مادة الباربيتورات في دمه بعد أسبوع من مرضه ؟

ابتسم في مودة كأنه أستاذ يهنئ تلميذًا مجتهدًا .. وقال :

- أنت حقًا ذكي .. لم تنس علم الأدوية بعد ، ولم تنس أن بنتوثال الصوديوم قصير المفعول جدًا وأن أثره في الدم

يختفي بعد أقل من ساعة من حقنه .. أنت تريد القول إن هناك من كان يزوره ويحقنه بالباربيتورات في الفترة التي تلت حقنتي الأولى ، وهذا صحيح .. لقد كانت (نجاة) زوجة أخيك تدعوني سرًا لزيارة زوجها وحقنه لأنها لم تكن تثق في الرنة وكانت تؤمن أنك - عدم المؤاخذة - حمار ..!

- اللعينة ..!

- والآن قل سؤالك الرابع بسرعة ..

- السؤال الرابع هو : كيف تطيعك (عواطف) بهذه السهولة ؟!

وضع يده على كتفها في حنان وقال :

- إنها تؤمن بي بشدة ... وتفعل أي شيء أطلبه منها ..

ابتسمت (عواطف) في فخر ... زوجان سعيدان يحب أحدهما الآخر ولو لم أكن مقيدًا في قبضتيهما كالذبيحة لتمنيت لهما الخير ..!

- السؤال الخامس هو : ما نوع التجارب التي تجريها على هؤلاء التعساء ..؟!

- سؤال جيد .. إنني أحاول صنع الإنسان السوبرمان لهذا أعرضهم لمؤثرات شتى من الإجهاد الحراري والسموم والباكتريا .. إن قوة تحملهم تزداد يومًا بعد يوم ..! وعما قريب لن يؤذيهم شيء ..

- باكتـ.... باكتريا ..! لكنك مخبول تماما !.. إنك تقتل هؤلاء التعساء ببطء !

قال في كبرياء وهو يرمي سيجارته :

- إن ما لا يقتلني يزيدني قوة ..

- وإذا قتلك ..؟

- عندئذ أكون أنا إحدى الفضلات التي مرت من مصفاة الانتخاب الطبيعي ومن دوني ستكون الحياة أفضل ... هكذا تكلم زرادشت يا عزيزي !!

يا للمعتوه !.. تمنيت في هذه اللحظة لو كان (نيتشه) أمامي كي أحطم رأسه .. ما أكثر المجانين الذين يزخر بهم هذا العالم وأنا لا أعترض على وجودهم بشرط ألا يؤدي هذا إلى إفناء وجودي أنا ... شخصية محبطة معقدة تعيش وحدها في الريف وتقرأ كتبا مخبولة ليلا ونهارا .. فماذا تكون النتيجة ؟!!

انتهت خمسة الأسئلة وحان وقت العمل ..!

في صمت - كأنه جلاد يمارس عمله التقليدي - أعاد لصق قطعة البلاستر على فمي، ثم تناول محقنا من (عقبات)، وأفرغه في وريد ذراعي .. ثم تناول ملفا مكتوبا عليه بخط أنيق :

« دكتور (رفعت إسماعيل) - أستاذ أمراض الدم (٣٧ سنة) خُطِف ١٢ مايو ١٩٦٢ ».

وبدأ يخط فيه عبارات عدة بالإنجليزية ... واكتسى وجهه بصبغة رسمية صارمة وهو يصدر تعليماته لزوجته كأنه في مستشفى كبير :

- الحرارة والنبض وضغط الدم وتغيرات الحدقة كل ٤ ساعات، الوجبات العادية .. غدا نبدأ الإنهاك الحراري ..!

إنهاك حراري ؟!.. ألن ينتهي هذا الجنون ؟!.. وكيف أمضي حياتي واقفا في هذا الوضع أنا الذي لا أحتمل الجلوس في مكان واحد أكثر من ربع ساعة ؟!

إنه لمأزق حقيقي ..

☆ ☆ ☆

بعد أربع ساعات كنت قد انتهيت تماما ..

ها أنذا مقيد تحت رحمة طبيب مجنون كما يحدث في الروايات العلمية الرخيصة .. المشكلة أنني لم أتخيل نفسي أبدا في هذا الموقف .. والمشكلة الثانية هي أن البطل - في هذه الروايات - يهرب دائما في آخر فرصة .. فكيف أهرب أنا ؟!..

طبعًا لا جدوى من محاولة الاستغاثة أو إدماء معصمي بشد القيد لأن من سيقرأني - بالطبع - قد حاولوا كل هذا

وفشلوا ... ولاجدوى من أن يبحث عن أحد في القرية لأن اللعين أجاد حبك قصته ، وهم لا يشكون في أن الندامة قد افترستني أنا وأخي ..

فتح الباب ودخلت (عواطف) واتجهت نحوي ، وفي برود تلمست حدقة عيني ثم وضعت ترمومترًا تحت إبطي ولفت جهاز الضغط حول ذراعي .. وعدت نبضي ، ثم إنها قرأت الترمومتر ، واستدارت للتصرف فناديتها بقدر ما استطعت خلف البلاستر ..

- (عواطف) ! ألا تفهمين ما الذي سيقودك إليه هذا المعتوه ؟

- ماذا ؟

- السجن أو ما هو أسوأ ..! فكري في ذلك .. لم تزل لديك فرصة ..

فكرت حينًا بوجه مغلق .. ثم إنها قالت وهي تهز كتفيها وتعيد تثبيت البلاستر :

- هذا ليس من شأنك ..!

وتركتني وانصرفت ..!

☆ ☆ ☆

وجاء الليل ..

عادت (عواطف) حاملة إناء كبيرًا به عشاؤنا .. وشرعت تدور على الأسرى واحدًا واحدًا تدس في فمه

ملعقتين أو ثلاثًا من هذه المادة الهلامية المقرفة ثم تتركه يمضغ بشكل ميكانيكي وتذهب للآخر ... وجاء دوري ! رفعت البلاستر من على فمي ..

كلا !.. لن آكل من هذا الشيء !.. ولن يكون فمي هو الخامس بعد هذه الأفواه ..!

- ألن تأكل ؟!

سألتني في فظاظة ، فقلت لها دامعًا وأنا أشعر بأنني مظلوم إلى حد لا يوصف :

- لا .. لا ..!

- كما تريد .. عندما تموت جوعًا ستتوسل من أجل هذا ..!

وهنا خطرت لي فكرة .. الوتر الوحيد الذي يمكن أن ألعب عليه هو مشاعر الأنثى .. أنا لا أفهم المرأة تمامًا ولو كنت أفهمها لكنت متزوجًا منذ عشر سنوات لكنني أعرف عنها صورة ضبابية من قراءاتي ، لهذا قررت أن أستغل ما أعرفه :

- (عواطف) !.. هل أنت واثقة أن د. (عاصم) يحبك ..؟

- ماذا تعني ؟

- أعني .. هل .. يستحق كل تضحياتك من أجله ؟!

نظرت حينا بوجه مغلق .. ثم هزت كتفيها وأعادت تثبيت البلاستر قائلة وهى تنصرف :

- هذا ليس من شأنك !

☆ ☆ ☆

بعد أربع ساعات عادت لتأخذ علاماتى الحيوية . قلت لها :

- (عواطف) ..! اسمعينى لحظة واحدة ..

- همم م ؟

- إن الدكتور (عاصم) لايحبك .. بل هو يرى أن زواجه منك أحد أسباب كراهيته لهذا المجتمع .. أنت إحدى علامات هزيمته وهو لن يغفر لك هذا ..

نظرت فى عينى بوحشية وهمست بفحيح الأفعى :

- اخرس !

- ولماذا يمنع رجل ناضج زوجته من أن تناديه باسمه المجرد ؟!.. إنه يخجل منك ..

- هذا ليس من شأنك ..!

قالتها وهى تهز كتفيها .. وأعادت لصق البلاستر وتركتنى وانصرفت ..!

☆ ☆ ☆

فى موعد الإفطار عدت أمارس لعبتى الخطرة ..

- ألم تتصفحى أبدًا كراسة مذكراته ؟!

قالت فى كبرياء وهى تدس الملعقة المشئومة فى فمى :

- الزوجة المحترمة لاتتجسس على زوجها .. أبدًا ..

قلت وأنا أمضغ ذلك الخليط الكريه من مواد مرّة وسكرية ومالحة :

- إنه فى العيادة الآن .. هلا صعدت إلى غرفته وقرأت مذكراته ؟.. أنا رأيتها .. ووجدت بها قصائد شعر ورسومًا وحديثًا عن فتيات كثيرات أحبهن قبلك ..

- لا أصدق ..

- أمامك الكراسة .. وهو لايخفيها على ما أظن ..

- هذا ليس من شأنك ..!

قالتها وهى تهز كتفيها .. لكنها فى هذه المرّة لم تعد لصق البلاستر قبل أن تنصرف !

☆ ☆ ☆

وبعد ربع ساعة عادت لى والدموع فى عينيها وثمة شىء ما فى قبضتها .. وصاحت وهى تتهالك وأنفها يسيل :

- ذلك السافل ..! الملعون !

آه !.. هل أصابت رميتى إلى هذا الحد ؟!.. يالى من داهية ..

- أنه لم يتزوجنى إلا لأنى أشبه حبيبته الأولى ..

- ألم أقل لك ؟!

- والأدهى أنه كتب فى مذكراته أننى لا أشبهها إلا فى الملامح لأنى غبية جاهلة وثقيلة الظل ... وأن ما أفعله من أجله لا يزيده إلا تشبثًا بالأخرى .. ذلك الكاذب المخادع !..

قلت لها وقد شعرت بقلبى يتمزق بالفعل من أجلها :

- حاولى أن تنسى ... فكل الرجال لهم حب أول ..

وهنا مدت يدها فى عصبية بالشىء الذى كانت تخفيه .. فتاح صغير صدئ أولجته فى قفل القيود وشرعت تفكها فى جنون وهى تصيح :

- والآن اذهب عليك اللعنة !.. اذهب واخرب بيتنا أنا وهو ، فلم أعد أعبأ بشىء .. هيا .. اذهب عليك اللعنة قبل أن أحطم رأسك !

وللحظة لم أصدق أننى تحررت .. كانت أطرافى متصلبة .. وكدت أسقط أرضًا لكن نظرة واحدة لعينيها الناريتين جعلتنى أطلق ساقى للريح ..

أخيرًا !.. الشمس والهواء ، ولأول مرة منذ أسبوعين ..

* * *

استغرق الأمر ساعتين كى أحضر بعض رجال الشرطة من المركز ليداهموا الوحدة ، وكنت قد ارتديت ثيابى وحذائى ووضعت مسدسى فى جيبى ، ودخل رجال الشرطة سكن الممرضات فوجدوا الضحايا الأربعة مقيدين كما وصفتهم ..

ثم قرعوا باب سكن الطبيب مرارًا فلم يرد أحد .. تعاون اثنان منهما ضخما الجثة على تهشيم الباب ، ودخلنا الغرفة .. وكانت كما هى لم يتغير فيها شىء .. إلا أن من دخل غرفة النوم عاد لنا ووجهه ممتقع قائلاً :

- إنهما هنا ..

وعلى الفراش كانا .. هى ساقطة على ركبتيها ووجهها مدفون فى الملاءة كأنها تبكى بينما هو راقد على ظهره مفتوح العينين ونظرة ذاهلة ترمق السقف ... وعلى الأرض انتشرت أقراص (الدونوليز) .. لقد تناولا جرعة قاتلة من دواء السكر أدت لقتلهما على الفور .. لربما أرادت هى أن تموت معه ولربما أجبرها هو لأنه لم يستطع أن يهرب (وأين يهرب) ولم يستطع أن يظل حيًا ليواجه غضب أهل القرية وصرامة القانون وسخرية الدهماء ..

وجواره على الفراش كان كتاب (كفاحى) لهتلر ملقى فى إهمال ..

قلت في شرود وقد بح صوتي من الرهبة :

- لقد أراد أن ينتحرا مثل (هتلر) و (إيفا براون) عندما غزا الحلفاء برلين ..! نفس المشهد الأليم .. ونفس الظروف!

التفت إلى رجل الشرطة الواقف جواري سائلا :

- انتحرا مثل من يا فندي ؟!

لا يبدو لي أن أحدهم سيفهم ... لن يفهموا مهما قلت أبدا ..!

نهاية مأساوية لكنها أفضل نهاية ممكنة ..

* * *

خاتمة ..

في مستشفى الجامعة بالقاهرة أكد لي الأطباء مرارًا أن أخي (رضا) بخير وسينجو ، وقد احتاجوا لنقل الدم له مرتين وأجروا له غسيلًا بريتونيًا لإزالة ما دخل جسده من سموم ... وقد ظلت أمي وأختي جواره طيلة الوقت وقد سرهما ما بدا عليه من علامات الشفاء الأكيد ..

أما (نجاة) - تلك الأفعى القاسية - فقد شكرت الأطباء كثيرًا ولم تكلف خاطرها بتوجيه كلمة شكر واحدة لي ، وعلى كل حال فأنا لم أفعل سوى واجبي نحو أخي ولا أحتاج شيئًا خاصًا منها ..

شيء واحد أثار حزني ، هو أن زملائي لم يستطيعوا أبدًا إنقاذ (الزغبي) لأن تجارب (المرحوم) كانت قد وصلت معه إلى طريق بلا رحمة ، أما عن (سعيد جابر) فقد استعاد لياقته ، وعاد (إبراهيم السقا) يحلم ويستمتع بالربيع والزهور .. أما أجمل شيء فهو أن أسطورة النداهة قد انتهت لعدة أجيال ولن تعود إلا لصورتها القديمة .. مجرد أغنية ترعب بها الجدات أحفادهن قبل النوم لمجرد التلذذ برؤية الهلع في عيونهم البريئة المتسعة !!

ولمدة أسبوعين كاملين استمتعت بوجود امرأتين في بيتي بالدقي - أمي وأختي - فعاد النظام والنظافة ، وعدت

آكل جيدًا وألبس جيدًا وأنام جيدًا وازداد وزنى عدة كيلو جرامات ..

وعند الرحيل توسلت لى أمى أن أذهب معهما للقرية كى أعيش هناك للأبد .. لكنى هززت رأسى فى بأس ..، لن أستطيع أن أتخلى عن مهنتى أبدًا ولن أفارق الجامعة ؛ طلبت منى - على الأقل - أن أتزوج سريعًا كى تطمئن علىّ فى وحدتى .. فوعدتها أن أفعل ذلك بمجرد أن أعود من مؤتمر أمراض الدم الذى سيعقد فى أسكتلندا بعد ستة شهور ..

ودعتهما هما وأخى على المحطة ..، ثم عدت لدارى الخاوية وقد أدركت تلك الحقيقة المروعة : لقد انتهت اجازتى ولن يسمح لى العميد بيوم آخر وإلا كان فى ذلك خراب بيتى !..

حتى ساعات راحتى صارت أكثر توترًا وانهماكًا من ساعات عملى !

والآن وقد انتهت قصتى مع الأشباح حان الوقت لأحظى بحياة طبيعية لكنى لم أكن أعرف أننى سألقى شيطانًا من نوع آخر فى مكان آخر يطير كل احتمال للراحة من حياتى .. ولكن هذه قصة أخرى .

د . رفعت إسماعيل

القاهرة فى مارس ٩٢

[تمت بحمد الله]

روايات
مصرية للجيب

٣٢٩

أسطورة النداهة

هل تسمعون هذا الصوت العميق الساحر القادم من المجهول ... ؟!
دعونى ألحق به ... ، ستقول أمهاتكم إن هذا هو صوت النداهة وأن ما من إنسان تبعه إلا واختفى كل أثر له .. ، ستقول زوجاتكم إن هذا هو صوت النداهة .. الغول المتنكر فى صورة فتاة حسناء تغرى الرجال باللحاق بها ... ، ستقول أخواتكم ... لا ... لا تذهبوا ... لا تصدقوا هذا الكلام .. تعالوا معى إلى الحقول المظلمة فى قرى محافظة الشرقية ..
تعالوا نلبى هذا النداء .. ، وإذا ما فقدتم حياتكم فلا تخبروا أحدًا بأننى من دعاكم إلى النداهة !!

المؤلف

د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة وحش البحيرة

الثمن فى مصر
١٠٠ قرشًا
وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع